# البعثات الطبية الأوربية لمكافحة وباء الكوليرا في مصر عام ١٨٨٣: جدل القومية والعلم والاقتصاد

د. شريف أحمد إمام

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب– جامعة عين شمس

## التمهيد

منذ سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى، انخرطت القوى الأوربية فيما أَطْلَقَ عليه المؤرخون "الإمبريالية الجديدة"؛ تلك الحالة المتمثلة فى نزعة قومية شديدة في الداخل ومنافسة استعمارية عنيفة في الخارج[١]. لقد توسع عدد المتصارعين في حلبة التنافس الاستعماري خارج القوتين القديمتين بريطانيا وفرنسا ليشمل دولًا أخرى مثل روسيا والولايات المتحدة واليابان وألمانيا وإيطاليا، وعمد فيضان القومية –الذي عرفته اوربا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر في اليونان وبلجيكا وبلغ ذروته في سبعينيات القرن في ألمانيا وإيطاليا –في ضخ دماء جديدة للحركة الاستعمار في ثوبه الجديد[٢]. وكانت أفريقيا تلك القارة التي ظلت طيلة القرن التاسع عشر ينظر إليها القاموس الاستعماري البريطاني باعتبارها محميته الخاصة، هي ميدان النزال بين القوى الاستعمارية الجديدة، حيث شكلت سيطرة ملك بلجيكا ليوبولد الثاني(١٨٦٥/١٩٠٩) على الكونغو واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ فاتحة العهد الاستعماري الجديد ومثل مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ مرحلة ذروته[٣].

لقد أدت المنافسة الاستعمارية إلى خلق حالة من التدافع العالمي فى كافة المجالات، ليس فقط في عوالم التوسع السياسي والاقتصادي، وإنما في عوالم الحضارة والعلم. لقد بات الإمبرياليون الجدد مؤمنين بأن استمرارية تفوقهم ليست مرهونة فقط بقوتهم العسكرية والاقتصادية، وإنما بقدرتهم على فرض نمط الحياة الغربية على الشعوب المستعمرة وإثبات عِلْمِيّة تخلف أعراقهم وحاجتهم الماسة للأوربيين. ووجد هؤلاء بغيتهم في الداروينية الاجتماعية، وفكرة التطور البيولوجي والبقاء للأصلح

وصار العنف الاستعماري مبررًا علميًا في سياق النضال من أجل التطور الطبيعي للإنسان. وأمست المعرفة الطبية جزءًا أصيلًا فى الخطاب الاستعماري الجديد، خصوصًا وأنها باتت أكثر تنظيمًا وتعقيدًا، وبالتالي أكثر صعوبة في الفهم على غير المتخصصين، ونمت هيبتها وأصبحت نظرياتها أكثر أهمية لصياغة السياسات الاستعمارية. وبات التفوق في مجاليّ الصحة والنظافة قيمة رمزية لتفوق الأمم وحجر الزاوية للنشاط الوطني للشعوب؛ يبرهن على ذلك الحماس الشعبي للاكتشافات العلمية ويشهد عليه التمجيد الأسطوري للمبدعين الطبيين، حتى وسمت بعض النظريات الطبية بالطابع القومي الراديكالي(٤).

لقد تفاعلت الإمبريالية سريعًا مع كل معطيات المعرفة الطبية–المرض والأبحاث والمؤسسات وقوانين العمل الصحية–وصار الطب نفسه وسيلة رئيسية لنقل الأفكار الإمبريالية وتطبيقاتها؛ بعد أن أضحى أيديولوجية بقدر ما هو تطبيق. إن حقيقة المعرفة الطبية لدى الإمبرياليين جعلت البنى المادية "الجسدية" والبنى الفكرية "المعنوية" التي تسمح بتحليل الجسد ممزوجتين بالمصالح السلطوية للمستعمرين(٥). وتلك حقيقة اعترف بها أحد عتاة المدرسة الاستعمارية البريطانية اللورد كورزون*: من أن الطب يمكن أن يكون مبررا للحكم البريطاني؛ لأنه بُني على صخرة العلم القاطع الذي لا يقبل الجدل(٦). وبالمثل ترى فلورانس نايتينجيل إحدى أهم الشخصيات في تاريخ السياسة الطبية البريطانية: أن إنشاء إدارة للصحة العامة في الهند هو جزء من مهمة جلب حضارة أرقى إلى الهند وخلق الهند خلقا جديدا(٧).

في ظل هذا القناعات الجديدة بدأت أخبار تفشي وباء الكوليرا في مصر عام ١٨٨٣ تصل إلى أوربا، ربما وصلت إلى مسامع المواطن الفرنسي في باريس ومارسليا قبل أن يسمع بها أهالي الصعيد(٨). وكانت أسباب وطرق علاج مثل هذه الأمراض

الوبائية حتى ذلك الوقت مجهولة، وعليه فإن " السياسية الصحية" التي تبلورت في أوربا – خاصة في لندن وباريس–وجدت في هذه المستعمرات الجديدة امتدادا لإجراء اختباراتها[٩]. لقد كانت الكوليرا تحديدًا في قلب المناقشات الطبية العالمية خلال القرن التاسع عشر، فلقد أدى انتشر موجاتها التي اكتسحت مساحات شاسعة من جنوب وشرق آسيا وأوربا والمنطقة العربية وأفريقيا وحتى الأميركتين إلى صراعات اجتماعية، وصعود للحركات المطالبة بمزيد من العناية للصحة العامة؛ فتوسعت بذلك أعمال البنى التحتية والصرف الصحي في المدن الأوربية بشكل كبير. كما أنها أدت إلى خلق أشكال جديدة من التعاون والمنافسة الدولية في وقت واحد. فمنذ عام ١٨٥١ عقدت المؤتمرات الصحية الدولية التي ناقش المجتمعون فيها أفضل التدابير لوقف المرض والحد من تأثيره، ومنع وصوله إلى أوربا، وكانت المناقشات في هذه الأحداث علمية وفي نفس الوقت سياسية[١٠]. على جانب أخرى، أدت إلى خلق ديناميكيات جديدة للمنافسة العلمية بين الإمبراطوريات الأوربية حول مسببات المرض والنظريات الطبية، وبرزت مدارس علمية تبارت فيما بينها من أجل إحراز قصب السَّبق وإماطة اللّثام عن هذا الوباء. وأصبحت المستعمرات بشكل متزايد مسرح هذه المنافسة، لا سيما في نهاية القرن.

وتطرح هذه الورقة تساؤلين هما: ما هي تجليات المنافسة الإمبريالية في مجال المعرفة الطبية من خلال استخدام مصر حيث وباء ١٨٨٣ كمعمل عالمي لتجاربها؟ مدى حفاظ المعرفة الطبية على موضوعتيها في ظل استخدامها في سياقات تبرير الفعل الكولونيالي؟

ثورة علم البكتريولوجي: مصر مختبر عالمي

ظلت مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر تعرف بكونها من الأماكن التى استوطن فيها وباء الطاعون*، وما كادت تبرأ من هذا الوباء حتى مُنيت بوباء أكثر فتكًا؛ هو وباء الكوليرا. ورغم أن مصر لم تكن في النصف الأول من القرن التاسع عشر قد وقعت في براثن القوى الكولونيالية بعد، إلا أنها لم تتمكن من الفرار من تأثير الغرب في مجال التنظيم الصحي. فالكوليرا مثل الطاعون تشق طريقها عبر القنوات الأرضية والبحرية الأساسية؛ ولأن مصر نقطة التقاء تجارى مهم، فقد كانت مراقبة موانئها ومنافذها على رأس قائمة إجراءات الحماية المطلوبة للحفاظ على أوربا(١١). بل إن النظام الصحي المصري ولد في كنف سيطرة أجنبية على إدارته، فلقد طلب محمد علي باشا (١٨٠٥/١٨٤٨) من القنصل الفرنسي برناردينو دروفيتي Bernardino Drovetti أن يستجلب له طبيباً ماهراً كي يكلفه بمسؤولية وضع نظام صحي لجيشه الوليد؛ حيث كانت فرنسا من أكثر الدول الأوربية تطوراً في الطب آنذاك فرشح أنطوان كلوت Antoine Clot. ومن البداية أقنع كلوت الباشا بأن في وسعه أن يستجلب أطباء فرنسيين ماهرين ليعملوا معه من أجل الحفاظ على صحة الجنود(١٢).

ففي عام ١٨٢٥ أنشأ مجلس مشورة الأطباء الذي تولى إدارته الأجانب ولم يكن فيه أحد من المصريين. وتأسست في عام ١٨٣١ اللجنة القنصلية للصحة* التي فُرضت على مصر من قبل الدول الأوروبية كجزء من إجراءات مكافحة وباء الكوليرا عبر تطبيق الحجر الصحي في الموانئ المصرية، وما أن شرعت في عملها حتى تحولت إلى ميدان لتصارع مندوبي الدول الأوربية للدفاع عن مصالح بلدهم السياسية والاقتصادية تحت مظلة التعاون الدولي، فالمندوبون لم يكونوا مهيئين للحديث في أمور الطب وسبل مكافحة الوباء بقدر براعتهم في الأمور التي تخص المصالح التجارية

لدولهم[١٣]. وبذلك صار هناك جناحان للإدارة الطبية يسيطر على كليهما الأوربيون أحدهما بالقاهرة والثاني بالإسكندرية وبات المجلسان في أربعينات القرن التاسع عشر تابعين لديوان الداخلية.

ومع فشل مشروع محمد على وقبوله بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ بات ملزمًا باتباع نمط الإدارة العثمانية؛ مما يعنى زيادة التمثيل الأوروبي في المؤسسات المصرية خصوصًا في إدارة الحجر الصحي، وجاء المؤتمر الصحي الدولي الأول الذي عقد بباريس عام ١٨٥١ ليكرس الهيمنة الأوروبية فيما يتعلق بحماية منطقة البحر المتوسط، وأُلزمت الحكومة المصرية التي لم تمثل في المؤتمر بقبول مزيد من وكلاء للدول الأوربية بمجلس الحجر الصحي[١٤]. وتزايدت سطوة هذه القوى في مجال إدارة الحجر الصحي في مصر خلال حكم خلفاء محمد على، حتى أنه في عام ١٨٦٥ كان تشكيل مجلس الحجر الصحي الدولي مكون من اثني عشر عضوًا أوروبيًا مقابل خمسة من المصريين، والأمر كذلك بالنسبة لمجلس الصحة بالقاهرة[١٥]. ومع اشتداد الحركة الوطنية حدثت نقله كبيرة في تولى المصريين إدارة المرفق الطبي؛ فنص الأمر العالي الصادر في ديسمبر ١٨٨٠ على أن الإدارة الصحية تتكون من مصلحة الصحة العمومية ومقرها القاهرة ويرأسها سالم سالم باشا ومصلحة الصحة البحرية والكورنتينات بالإسكندرية ويرأسها حسن باشا محمود[١٦]. ولم يكن تمصير رئاسة المؤسستين يعنى تصفية النفوذ الأجنبي، فلقد ظلت السطوة الأوربية قائمة؛ فمصلحة الصحة تكونت من أربعة مصريين وخمسة أجانب، أما إدارة الحجر الصحي فكان التواجد المصري أقل من نظيره الأجنبي أيضًا واقتصر على سبعة أعضاء، في مواجهة حضور أجنبي أكبر من مندوبي القوى الأوروبية الذين يحق لهم التمثيل وكان عددهم

سبعة أعضاء بموجب المرسوم بالإضافة إلى طبيبين: أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي(١٧).

بالمقابل تصادفت الموجة الوبائية هذه المرة مع فجر الثورة البكتريولوجية، تلك الثورة التي فجرها نشأة المعمل الحديث بأجهزته القادرة على تحويل الاضطرابات الفيزيائية – الكيميائية إلى كميات وأرقام، وميكروسكوبه الثاقب القادر على رصد الكائنات الدقيقة(١٨). لقد أدت هذه الثورة إلى ميلاد نظرية جرثومية المرض• التى تمثّل بدايات الطب الفعال؛ ومن ثَم الطب الحديث. فالمؤرخون يشيرون إلى أن اكتشاف تسبُّبٌ الكائنات الحية الدقيقة في كثير من الأمراض مثل التيفوس والسل والزهري والكوليرا والملاريا والجدري والأنفلونزا وأمراض كثيرة أخرى، استغرق عقودا من النقاشات قبل الوصول إلى قناعة بسلامة ذلك(١٩). فقبل ظهور تلك النظرية كانت النظرة القديمة إلى مسببات المرض تنحصر في رؤية قدرية ترى سبب– أي مرض من الأمراض–روح خبيثة تتسرب إلى جسم الإنسان فتصيبه بالمرض وهي لا تلبث أن تبرحه فيشفى أو تبقى فيموت. ولقد قامت دعائم العلم الجديد على أكتاف اثنين من الآباء المؤسسين: هما الفرنسي لويس باستير (١٨٢٢–١٨٩٥) والألماني روبرت كوخ (١٨٤٣–١٩١٠ )حتى بات تقسيم علم البكتيريا منحصر بين مدرستي: " باستير" و " كوخ"، على الرغم من وجود الكثير من "المدارس" والعلماء ممن حذوا حذوهما، لكنهم لم يحظوا بشهرتهما(٢٠). كانت هاتان المدرستان قوميتين من حيث البنية والممارسة، فقد كان باستير وكوخ بطلين قوميين في بلديهما، خلقا نوعًا من معاهد البحوث الوطنية والتي ساعدت فيما بعد في خدمة النشاط الاستعماري(٢١).

في خريف عام ١٨٧٠م اشتعلت أوار الحرب السبعينية بين القوات البروسية" الألمانية" والفرنسية، واستدعى من حقول فرنسا لويس باستير وأُوبي بروبرت كوخ من معمله ووقفا على بعد مائة ميل من بعضهما في حقول فرنسا. هزمت فرنسا وانتصرت القومية الألمانية الوليدة مما أدى إلى تحول تنافس باستير وكوخ إلى عداء سافر[٢٢]. ورغم أن العلم ينبغي أن يكون دوليًا وموضوعيًا، متجاوزا لحواجز العرق أو الدين أو الجنسية أو نوع الجنس، لكن الواقع طالما كان مختلفا. فالحقيقة أن كوخ وباستير عبرا عن المشاعر القومية العدائية في علاقتهما الشخصية والمهنية؛ فقد أعاد باستير أوسمة الشرف التي حصل عليها من الولايات الألمانية عقب الحرب الفرنسية البروسية، ورفض شرب الجعة الألمانية، بينما كان كوخ حريصا على تصيُّد أكبر قدر من الأخطاء عند طرح الاكتشافات فالفرنسية الجديدة في مجالي علم البكتيريا وعلم المناعة. واتسمت لقاءاتهما في المؤتمرات الدولية بطابع رسمي لا يخلو من فتور. وكان لكل منهما أسلوبه العلمي المختلف تماما عن الآخر[٢٣].

في عام ١٨٧٢ عُقد مؤتمر جنيف الذي حضره أساطين العلم، وكان فرصة لمواجهة بين باستير وكوخ، فلقد وقف باستير يشرح في رسالة طويلة نتائج تطعيم المواشي لوقايتها من الحمى، ولما كان يعلم أن كوخ ليس ممن يحسنون صناعة الكلام رأى أن ينتهز هذه الفرصة ويورطه في الرد عليه. فوت كوخ الفرصة على خصمه وقال في هدوء، إنه سيجيب على باستير في ورقة علمية تظهر بعد بضعة أسابيع[٢٤] . وظهرت فعلًا هذه الرسالة التي فند فيها أعمال باستير بطريقة علمية ليس فيها لبس، استهلها بقوله: " هناك اختلافات جوهرية بين الطرق التي استخدمها أنا وباستير في دراسة الأمراض المعدية؛ لهذا السبب وحده كان من المحتم أن تؤدى تجاربنا إلى نتائج مختلفة. فلم يثبت بعد أن جميع الأمراض المعدية تسببها الكائنات الحية الدقيقة وبالتالي

يجب على المرء أن يثبت الطبيعة الطفيلية لكل مرض معين على حدا لإن تعميم الاستنتاجات غير مقبول مع العلوم الطبية كما فعل باستير. وجاءت القاسمة عندما قال: " فليعلم باستير أنى جربت الطعم الذي توصل إليه فوجدته يقتل المواشي نفسها ولا يحصنها كما زعم"[٢٥].

غير أن علاقة الرجلين تحسنت لفترة بدافع من تقدير كل منهما لأبحاث الآخر، فأثناء مؤتمر لندن الطبي عام ١٨٨١م اِلْتَقَى وتبادلا أطراف الحديث حول العديد من المواضيع العلمية[٢٦]. لكن الود الذي فرضته الموضوعية تبدد تحت غيوم القومية المتطرفة، فلم يتردد باستير في الدفاع عن الأبحاث والنظريات التي توصّل إليها عدد من العلماء الفرنسيين السابقين عقب تعرضها لانتقادات وتشكيك من قبل علماء ألمان، وبدأ يكيل الانتقادات للاكتشافات الألمانية. وعمد إلى استغلال مؤتمر جنيف ١٨٨٢ للرد الانتقادات الألمانية، وجاء رده علميًا لكن خطأ في الترجمة أثناء المؤتمر أسهم فى تأجيج المشاعر بأكثر مما ورد في الرد العلمي، حيث أشار باستير إلى أعمال كوخ باسم "recueil allemand "، والتي تعنى مجموعة الأعمال الألمانية، بينما ترجمت بشكل غير صحيح "orgeuil allemand " وتعنى "الغطرسة الألمانية"؛ مما جعل كوخ يغضب على هذه الإهانة غير المقصودة وطلب الرد كتابة كعادته، وأشعلت الصحافة الشعبية النيران في كلا البلدين، رغم نفى كوخ أن رده جاء بدافع سياسي[٢٧]. ومن ثم عاد التنافس العنيف بين المدرستين، وما كادت دولتيهما تسمعان بنبأ تفشي وباء الكوليرا في مصر عام ١٨٨٣حتى وجدتا فيه فرصة لتجربة الخبرة المكتسبة في مجال البكتريولوجي وجولة جديدة من السباق العلمي بين مدرستي باستير وكوخ، سباق جرى إيقاعه على النغمات القومية لدى الدولتين•، وسهل الطابع الدولي للمؤسسات الطبية المصرية فى جعل مصر مضمارًا لهذا السباق.

## بعثة باستير وأزمة القومية المهزومة

لم يكد يبرح الاحتلال البريطاني لمصر عامه الأول، حتى ضربت الكوليرا البلاد، ففي يوم ٢٢ يونيو ١٨٨٣ رصدت أول حالة الوباء في دمياط وعرفت لدى الأهالي باسم "الهيضة"[٢٨]. ولقد كانت هناك قناعة أوربية بأن وفود الكوليرا إليها عام ١٨٦٥ جاء عبر بوابة مصر، ومن ثم ما كادت تسمع بظهور وباء عام ١٨٨٣ في مصر حتى ساورتها الشكوك من أن يصل الوباء مجددًا إلى الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط[٢٩]. ولم تلبث تلك الأنباء إلا يومًا واحدًا حتى باتت مادة خصبة للصحف الفرنسية التي أفردت لها مساحة كبيرة، فأكدت من البداية أن اللجنة المكلفة من الإدارة الصحية فى مصر بالذهاب إلى دمياط رصدت في تقريرها يوم ٢٥ يونيو أن الوفيات لمصابين بالكوليرا بالفعل[٣٠]. وان الأنباء الواردة من مصر خطيرة؛ لكون المسافة بين الموانئ المصرية والفرنسية أقل من ثمانية أيام[٣١]. تحركت الحكومة الفرنسية سريعًا فصدر مرسوم فرنسي يأمر بإخضاع السفن القادمة من مصر للعزل الصحي مدة عشرة أيام، يتم خلالها فحص من على متنها للتأكد من خلوهم من الأمراض الوبائية[٣٢]. وأكدت الصحف أن هناك إجراءات مشددة في ميناء مارسيليا لمنع ووصل الكوليرا عبر السفن المصرية[٣٣]. ولقد أفردت صحيفة" الغاليّ" Le Gauloi مساحة كبيرة للحديث عما ينتظر مصر جراء وباء الكوليرا حيث ذكرت: " إنها قاتلةٌ – تقصد الكوليرا–لأي شخص يعرف مصر؛ فالفلاحون يجهلون الكثير من الاحتياطات التي يجب اتخاذها، وأن ردهم الدائم على جميع التدابير الوقائية الموصي بها هو ترديد عبارة أنه مكتوب C'était écrit . فالإجراءات القوية هي الوسيلة الوحيدة لاستئصال الأمراض الوبائية من مصر كما فعل محمد على وابنه إبراهيم من قبل. فموقع دمياط واتصالها بالدلتا حيث الكثافة السكانية العالية

والتقارب الشديد بين القرى يجعل الأمر خطيرًا ويسهل وصول الوباء للقاهرة والإسكندرية(٣٤).

ومنذ الوهلة الأولى اتهمت الصحف الفرنسية السلطات الإنجليزية بالرغبة في إخفاء حقيقة تفشى الكوليرا في مصر، وممارسة ضغوط على أطباء حكوميين من أجل عدم نشر ما رصدوه، والادعاء بأن المرض الذي تفشى فى دمياط ما هو إلا التهاب معوي أو بعض الأمراض غير المعدية الأخرى. كما وُسمت سلطة الاحتلال بالتراخي في اتخاذ التدابير الاحترازية التي أوصت بها لجنة الصحة الدولية قبل عدة أشهر والقاضية بمنع السفن القادمة من الهند من الوصول مصر والانتقال إلى أوربا.(٣٥) بل أن جريدة روان Journal de Roanne انفردت بنشر تحقيق بعنوان " فضيحة الإسكندرية والخطر على أوربا" أكدت فيها أن مندوب بريطانيا في مجلس الحجر الصحي بالإسكندرية رفض وبشدة أن تطبق إجراءات حجر صارمة على السفن القادمة من بومباي إلى البحر الأحمر، وأكدت الجريدة أن مصالح بريطانيا التجارية قادتها إلى ضرب عرض الحائط بتلك القرارات الدولية، وأردفت أن مجلس الإسكندرية مُنع من اتخاذ إجراءات وقائية ضد الحجاج المسلمين القادمين من جاوا والهند والمشتبه في إصابتهم بالعدوى، وأنه نقل ذلك إلى القسطنطينية دون أن يحدث شيء. وختمت الصحيفة تغطيتها بالقول:" إن اللامبالاة الإنجليزية والرغبة في حماية تجارتها من أن تتعطل بفعل إجراءات الحجر الصحي أسهمت في انتقال الكوليرا إلى مصر، وباتت الدول الغربية –التي لا تسأل عن أنانية بريطانيا في الحفاظ على مصالحها –في مواجهة مع تلك الآفة الخطيرة"(٣٦). وبدأت الصحف الفرنسية في الحديث عن أن أمريكا والنمسا والمجر وغيرهم يشاطرون المنطق الفرنسي في أن اللامبالاة مسؤوله عما ينتظر أوربا والغرب من أخطار(٣٧). بل إن الصحافة الفرنسية

عرضت سردية مبكرة عن كيفية انتقال المرض إلى مصر قائلة:" إن المرض وفد إلى مصر من الهند عبر اختلاط الحجاج القادمين من مصر بحجاج هنود قدِموا على متن سفينة من بومباي، وأن السلطات البريطانية التي فرضت إجراءات صحية صارمة على جنودها الذين وفدوا إلى مصر من الهند تراخت عن فعل الشيء نفسه مع الحجاج. وأن العزل الصحي الذي فرض على سفينة الحجيج في عدن اتسم بالتراخي؛ مما أدى إلى تفشي الوباء مع تزايد فرص انتقاله إلى أوربا وختمت الصحيفة بالقول" لذلك نحن تحت التهديد Nous sommes donc sous la menace"[٣٨].

مع بداية تواتر الأنباء عن تفشي وباء الكوليرا سارعت الصحافة الفرنسية إلى باستير لطلب كتابة مقال عن الوباء؛ لكنه اعتذر لصحيفة فولتير بعدم توافر معرفة كافية عن طبيعة الانتشار الجديد للوباء بمصر، وأرسل للجريدة يقول: "يشرفني تكريس نفسي لفولتير، لكن جرأتي في التأكيد عندما يكون لدي دليل في متناول اليد لا يقابلها سوى خَجِلي عندما لا يكون الأمر قد خضع لتجربتي."[٣٩]. كانت السلطات الفرنسية بدأ القلق يساورها، فالموانئ الفرنسية على اتصال مع مصر والشام، وكان الدرس الأساسي للأوروبيين من الوباء الكبير في عام ١٨٦٥، هو أن الكوليرا الآسيوية التي تقدمت في الأوبئة السابقة ببطء إلى أوربا فقط عن طريق البر، يمكن أيضًا أن تصل هناك عن طريق البحر وعبر الشرق الأوسط وبسرعة كبيرة[٤٠].

على عجل عُقد يوم السابع من يوليو١٨٨٣ اجتماعًا لمجلس الصحة العام الفرنسي برئاسة الدكتور لاجنو lagneau ناقش المجلس الإجراءات الواجب اتخاذها لاستبعاد غزو الكوليرا إلى باريس، بعد أن لوحظ –من خلال فحص التقارير الرسمية–، أن الآفة لم تعبر بعد شواطئ البحر إلى فرنسا، وأنه لم يتم العثور على أية

حالة على سواحل فرنسا. لكن المجتمعين رأوا أنه من الحكمة اتخاذ بعض التدابير الوقائية وتم الاتفاق على تعيين لجنة خاصة لبحث الأمر برئاسة باستير، وصدرت تعليمات لهذه اللجنة بمراجعة ما ينبغي اتخاذه من قرارات لمنع وصول الكوليرا[٤١]. في الحادي عشر من يوليو ١٨٨٣ قدم باستير تقريرًا أمام اللجنة الاستشارية لمجلس الصحة العامة في فرنسا حول تفشي وباء الكوليرا في مصر وأوصى بضرورة إرسال بعثة لإجراء بحث "حول طبيعة المرض "واضعًا قائمة بأسماء أعضاء تلك البعثة وهم الدكتور رو Roux أحد مساعديه، البروفيسور شتراوس Straus، البروفيسور نوكارد Nocard من المدرسة البيطرية الفرنسية، وأخيرا العالم لويس ثويلير Louis Thuillier الذي – حسب مراسلته –طلب هو الانضمام إلى البعثة فأجيب لطلبه. وطالب باستير مجلس الصحة الفرنسي بضرورة توفير كافة الاحتياطات الصحية للبعثة[٤٢]. كانت توقعات باستير –على وجه الخصوص –في نجاح البعثة الفرنسية عالية فلم يكن يتخيل انتصارًا ألمانيًا آخر قد يسجل عليهم بعد الكثير من النجاحات التي حققها العلماء الفرنسيون في اكتشاف العلاقة بين الكائنات الحية الدقيقة والمرض، لذلك كان هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن نجاحًا محتملًا سوف تجنيه البعثة الفرنسية عندما تطأ الأراضي المصرية باحثة عن سبب الكوليرا وطرق علاجها[٤٣].

مع الإعلان عن تشكيل البعثة، شرعت بعض الأقلام في انتقاد إرسالها في ظل ذروة تفشي الوباء وغياب باستير عن رئاستها، وأرسل أحدهم مخاطبًا باستير: " إنه لمن المؤسف ألا تذهب بنفسك إلى مصر لدراسة الكوليرا هناك، تخاف على نفسك من الخطر وترسل الآخرين إلى البلاء الرهيب، اذهب وعرض نفسك للموت هناك، إنك تود أن تقوم بدراستك دون خطر وتغامر بحياة الأخرين"[٤٤]. ولعل تردَّدَ هذا السؤال دفع بباستير للرد قائلًا: "إن الخطر الذي يمكن أن يخوضه هؤلاء العلماء

الشباب هو بالتأكيد عظيم؛ لكنني على ثقة تامة في فاعلية الإجراءات الصحية التي أشرت عليهم بها"[٤٥].

انعقد مجلس الصحة وعرض باستير رؤيته وصدر قرار تشكيل البعثة، وكتب باستير إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطاني من أجل الحصول على الحماية اللازمة من الحكومة الإنجليزية لعمل البعثة[٤٦]. ويبدو أن هناك حرصًا فرنسيًا على أن يكون مرسل الخطاب باستير لا الخارجية الفرنسية، وذلك للتأكيد على الطابع العلمي للبعثة وأنها بعيدة عن الجدل السياسي الدائر حول مصر. في المقابل شككت التايمز البريطانية من أن يكون الدافع إلى إرسال البعثة الفرنسية البحث عن السبل التي تكفل منع انتقال المرض إلى فرنسا؛ ففي رأى الصحيفة فإن الاحتياطات الصارمة البريطانية التي تم اعتمادها على الفور تمنع دخول الكوليرا إلى فرنسا، لكن يبدو أن التقدم الكبير الذي حققته فرنسا في مجال دراسة الأمراض المعدية منذ الوباء الأخير تبحث له عن مختبر جديد لتجريبه[٤٧].

على الرغم من اتخاذ القرار بإرسال البعثة لكن الأمر كانت تتجه إلى إرجاء إرسال البعثة إلى حين، لكن صرخة علمية جديدة تجددت فى اجتماع أكاديمية العلوم فى ٢٣ يوليو، عندما قُرِاءَ على المجتمعين مذكرة للدكتور فوفيل تتعلق بظهور الكوليرا في مصر وارتفاع احتمالية تسللها إلى أوربا. اتهمت المذكرة إنجلترا بالسماح للكوليرا بالتغلغل إلى مصر من خلال وقوعها في شرك حبها المفرط للمكاسب التجارية؛ حيث سحبت بعض السفن القادمة من الهند من المحاجر الصحية دون أن تمكث الوقت الكافي للحجر. وأكد فوفيل على أنه جرى نقل المرض من بومباي بواسطة سفينة إنجليزية، وسرعان ما انتشر في جميع أنحاء مصر؛ وأنه سيغزو الإسكندرية، وستتعرض أوربا للتهديد قريبًا. على الفور قررت الأكاديمية إدراج هذا العمل بالكامل في

تقاريرها؛ والتعهد بأنها سوف تستخدم كل نفوذها وسلطتها للترويج لهذه الوثيقة الرائعة[٤٨]. وبالفعل انعقد البرلمان الفرنسي ووافق على إرسال البعثة نهاية يوليو، وزفت الصحف الفرنسية الخبر بقولها " العلم يجب أن يكون الآن في طريقه إلى القاهرة la science qui, à l'heure qu'il est, doivent être en route pour le Caire[٤٩].

قبل وفود البعثة كتب باستير للجمهور الفرنسي –القلق بشأن المخاطر الكبيرة التي تنتظر الأطباء الشباب بعد أن أرسلهم العجوز ومكث هو–قائلًا: "إن الاحتياطات الواجب اتخاذها والتي أشرت على أعضاء البعثة الفرنسية بها –والتي ترغبون في معرفتها –تتعلق جميعها بسبل مكافحة أسباب العدوى بينهم. إن الكوليرا لا تدخل للكائن البشري عبر المسالك التنفسية، ولكن فقط من خلال الجهاز الهضمي ؛ لذلك قلت لهم لا تستخدموا مياه الشرب دون غليها مسبقًا، عليكم فقط استخدام الأطعمة المطبوخة جدًا أو الفواكه الطبيعية التي تم غسلها جيدًا بالماء المغلي والتي تم حفظها في نفس الأوعية التي خضعت للغليان، استخدم الخبز المقطّع إلى شرائح رفيعة مع إحضارها مسبقًا إلى درجة حرارة حوالي ١٥٠ درجة، لمدة ٢٠ دقيقة على الأكثر، بعد تقطيعه إلى شرائح ؛ يجب غمر ملاءات الأسرة والمناشف في ماء شديد الغليان ثم تجفيفها ؛ استخدم الماء الكحولي للتنظيف ليدين وغسل الوجه بالماء المغلي، مع إضافة حمض أوميك المذاب"[٥٠]. كانت تلك تعليمات عامة يعلمها المواطن الفرنسي العادي؛ مما يعنى أن جواب باستير لم يكن مقنعًا وظلت الانتقادات تطال تقاعسه عن الذهاب بنفسه إلى ميدان البحث.

وصلت البعثة الفرنسية في منتصف أغسطس وكان في استقبلها القنصل الفرنسي مونج بالإسكندرية L. Monge، وعمد اثنان من أعضاء البعثة إلى التوجه

إلى مديرية الغربية على أن يقصدا بعدها القاهرة، ثم ينتقلا بعدها إلى صعيد مصر حيث كان الوباء يتمدد إلى هناك. وتقرر بقاء الأخرين في الإسكندرية، حيث يُودي الوباء بالعديد من الضحايا كل يوم، على أن يقوم أحدهما بمغادرتها يوم الاثنين متوجهًا إلى دمياط والمنصورة لدراسة أصول وأسباب المرض على الفور[٥١]. وما أن شرعت البعثة في ممارسة عملها حتى شرعت الصحف الفرنسية تتوقع النصر العلمي القريب فكتبت جريدة باريس: " لا تضيع التقاليد السخية في فرنسا، فعلى حين أن الإنجليز من أجل جشعهم التجاري جعلوا أوربا تتعرض لأخطار غزو الكوليرا، فإن الفرنسيين –المخلصين لماضي وطنهم المجيد –تركوا أبحاثهم ورحلوا إلى مصر في قلب الوباء؛ بحثًا عن العلاج الذي يجب أن يخلص البشرية منه بشكل نهائي. إن العلماء الشجعان الذين شرعوا في البحث عن جثث قتلى الكوليرا إذا تحدثنا اليوم عن شجاعتهم، فذلك لأنه لن يذهب جهدهم سدى ولن يصبح عبثًا مخاطرتهم بحياتهم من أجل مصلحة العلم والإنسانية. فلقد تلقى السيد باستير –المروج والمُلهم لهذه المهمة– رسالة أرسلها إلى السيد دوماس السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم، حيث تم إخباره عن نتائج مفاجئة لوحظت بالفعل وكلها متفقة مع الأفكار والنظريات التي كانت بمثابة أساس لهذه الرحلة العلمية؛ لذا يبدو أن أفكار السيد باستير تنتصر مرة أخرى![٥٢].

ولم تلبث البعثة الفرنسية أن أخذت منحى كارثيٍّ؛ إذْ عاجل الموتى ثويلير بعد إصابته بالكوليرا، وتناقلت الصحف الفرنسية الخبر محملة برائحة النقد لباستير الذى دعا لتشكيل البعثة مع علمه المخاطر[٥٣]. وكذلك للسياسة البريطانية فذكرت إحدى الصحف: " إن هذه المجموعة من العلماء الشباب الذين غادروا لدراسة أشد الآفات التي دمرت أوربا كانوا يواجهون الموت، وتضحياتهم السخية بأنفسهم تتناقض بشكل

مذهل مع سلوك هؤلاء المسؤولين البريطانيين، الذين انسحب معظمهم قبل الخطر(٥٤) وحاولت صحيفة لوفيجاروا Le Figaro بث الأمل مجددًا فذكرت:" دعونا نتمنى أن يكون فقدان العالم الشاب الذي مات بدافع التفاني في العلم والإنسانية، هو الضريبة الوحيدة التي يجب أن تدفعها رسالتنا الشجاعة في مواجهة الطاعون الرهيب(٥٥).

مكثت البعثة شهرًا تبحث في مسببات الكوليرا وقفلت راجعة نهاية أكتوبر دون أن يحققوا أية نتائج إيجابية. وتوجهت سهام النقد مجددًا لباستير فقالت صحيفة الغالي: "وصلت بعثة باستير أمس من مصر، عاد مندوبو العلم ثلاثة ومات ثويلير هناك، بعد أن ضحى بحياته. إن ما هو أكثر إثارة للاهتمام–في مهمة باستير هذه –هو السيد باستير نفسه لأنه بناءً على طلبه ولتطبيق عقائده تم تشكيل هذه المهمة. وظل هو هادئًا في معمله، دون قلق بشأن الضوضاء التي تحدث حول اسمه، لصالحه أو ضده، يواصل السيد باستير سلسلة أعماله ويدعم مجده(٥٦).

لم تفضَ الوثائق بشيء عن البعثة الفرنسية حتى العاشر من نوفمبر ١٨٨٣؛ عندما اجتمعت الجمعية البيولوجية في باريس برئاسة بول بيرت وقدم الدكتور شتراوس وصفاً للأبحاث التي أجراها أعضاء البعثة العلمية الفرنسية حول طبيعة الكوليرا. أسهب التقرير فى الحديث عن الأدوات البحثية التي استخدمتها البعثة، والمعوقات التي واجهت البعثة ومنها صعوبة جمع جثث ضحايا الكوليرا المناسبة للدراسة لأن الوباء وصل بالفعل ذروته. ذكر التقرير أن دراسة الأطباء الفرنسيين تركزت على فحص السائل المعوي وجدران الأمعاء والدم، وعمل الفحص النسيجي للجدران المعوية الملونة بالأزرق، وتبين من الفحص وجود عدد كبير من الكائنات الحية الدقيقة شبيهة بتلك الموجودة في بعض الأمراض الوبائية. ومن تلك الكائنات "

البكتريا الفصلية" –وهى بالفعل السبب البكتيري للكوليرا الذى توصل إليه الألمان فيما بعد–لكنهم لم يصروا في الواقع على هذه النقطة، على الرغم من أن الأمور كانت شبيهة بمرض السل الذى توصلوا لمسبباته من قبل[٥٧].

لقد قامت البعثة بتشريح قرابة ٢٤ جثة من ضحايا الكوليرا سبع عشرة جثة منها لنساء والباقي لرجال؛ ويشير التقرير إلى أنه على الرغم من التجارب العديدة، إلا أنها فشلت في معرفة أية بكتريا مسببة للمرض. لقد قاموا بمحاولة فصل الميكروبات وإعادة حقن الحيوانات بها لمعرفة أيٍّ منها يسبب الداء دون جدوى. ويعزو التقرير هذا الفشل إلى عدم كفاية معرفة أعضاء البعثة بفن الشروط اللازمة لحياة جميع الميكروبات مما جعلها يفقد فعاليته قبل حقن الحيوانات به والتأكد من سلامة استنتاجاتهم. ومع ذلك فإن أعضاء البعثة كانوا مقتنعين بأن الدم هو الوعاء الحامل للكوليرا وليس الأمعاء كما ثبت بعد ذلك.[٥٨] وكان الدافع لذلك هو تأكيدهم على حموضة دم مرضى الكوليرا[٥٩].

من الواضح أن البعثة فقدت حماسة سريعًا في الوصول لمسببات الكوليرا؛ فلقد زكى حماسهم الوقاد في أيامهم الأولى توقعات باستير بأنهم على أبواب معرفة سبب الكوليرا قبل بعثة كوخ التي حلت متأخرة؛ لكن مدفوعين ببدأ انحسار وباء الكوليرا، وغياب باستير المعلم والقادر على منحهم بعض الصبر لمواصلة المسيرة، فتر حماس هؤلاء الفتية. بل إن إثنين منهم –وهما نوكارد وثويلير – انصرفا لمدة أسبوعين عن متابعة الكوليرا وشرعا في دراسة مرض الطاعون البقري، وهو مرضٌ معد آخر كان مصدر قلق واسع النطاق؛ لكنه عديم الصلة بمرضى الكوليرا[٦٠]. وإذا علمنا أن ثويلير توفى بعد شهر من مجيئه لمصر وأنه مكث نصف مدته في دراسة الطاعون

البقري؛ هذا يعنى أنه هو ورفاقه لم يبذلوا أكثر من أسبوعين في دراسة مسببات الكوليرا وهو وقت غير الكافي لدراسة المرض.

ويمكن أن نضيف إلى أسباب الإخفاق سببًا أخر؛ وهو الصعوبات التي ساقها الاحتلال البريطاني أمام عمل البعثة الفرنسية؛ فلقد أبرق إيرل جرانفيل قبيل إرسال البعثات منشورًا إلى جميع الممثلين البريطانيين في أوربا بشأن تفشي الكوليرا في مصر؛ لإبلاغهم بالنقد الدولي السائد واتهام الحكومة البريطانية بأنها استفادت من موقفهم الحالي في مصر لإجبار الحكومة المصرية على تخفيف الاحتياطات لتجنب الإزعاج للتجارة البريطانية. وطالب ممثلو بريطانيا بالدفاع عن وجهة النظر البريطانية بأن ممارسة الحجر الصحي ليست فقط غير مجدية ولكن في الواقع مؤذية، وإقناع الدول بحكمة السياسة البريطانية تجاه الوباء[٦١]. ولعل كثرة تزعم فرنسا لحملات النقد تلك جعلت السلطة البريطانية في مصر تحتاط كثيرًا من بعثة باستير وترتاب منها مما جعل مناخ العمل غير مريح.

على كل، فإنه في الوقت الذي كانت البعثة الفرنسية تشيع جنازة ثويلير وتقبر معها ذلك الأمل العريض الذي داعب خيالها بتحقيق نصر على الألمان عجزت أن تحققه بفوهات المدافع. كان كوخ الذي وصل الإسكندرية يعتقد أنه توصل هو ومجموعته إلى الكائن المسئول عن الكوليرا في مصر.

## بعثة كوخ: المعرفة الطبية وصياغة القومية الألمانية

في عام ٢٠٠٦ وضع إيك ريتشاردت Eike Reichardt دراسته الرائدة في مجال دراسات تاريخ الإمبريالية الجديدة التي تتمحور حول دور الطب في تشكيل الهوية الوطنية الألمانية وصناعة إمبراطوريتها؛ وبحسب الدراسة فإنه بحلول سبعينيات

القرن التاسع عشر، كانت ألمانيا موطنًا لتسع عشرة جامعة وكانت قد توصلت إلى قرابة سبعين اكتشافا في الطب، وبدأت المجلات المتخصصة تعرف طريقها إلى أوربا عبرها. كانت تلك الاكتشافات – لأمة وليدة–تستخدم في تعزية الشعور القومي. ففي عام ١٨٨٣ كانت برلين تشهد المعرض الصحي والذي مُثلت فيه الاكتشافات العلمية لكوخ مع مختبر كامل، حيث تمكن المتفرجون من مشاهدة المعدات العلمية المستخدمة في مكتب الصحة الإمبراطوري من أجل "البحث في طب الأمراض المعدية ". قرابة مليون تذكرة بيعت لمشاهدة اكتشافات الرجل الذي نال تكريم الإمبراطور ويلهم الأول (١٨٨٨/١٨٧١) منذ عام وحمل لقب المستشار الإمبراطوري الخاص، وبعد أن قدم كوخ بنفسه منجزاته في معرض برلين ترك –المسؤول الطبي الأول في مكتب الصحة الإمبراطوري–المعرض منعقدًا وذهب إلى مصر لمحاولة تحديد السبب البكتيري لتفشي الكوليرا الذي من الممكن أن يهدد أوربا قريبًا(٦٢).

لقد كانت موجة الوباء الجديدة؛ فرصة ذهبية للألمان لاختبار ما وصلت إليه معارفهم في مجال علم البكتريا والجراثيم، فالمرض لن يدق أبواب برلين، لذا تعين السفر عبر المتوسط لسبر أغواره. لقد وجد مكتب الصحة الإمبراطوري حديث التكوين أنها فرصته ليبرهن مجددًا على كفاءته، خصوصًا وأن الوباء وقع في مصر وهى بلد يمكن الوصول إليه من وسط أوربا في أكثر من أسبوع بقليل؛ لذلك يمكن للمرء أن يتوقع العثور على الوباء وهو في طور التفشي. كما كانت مصر دولة تتميز بوجود طرق جيدة وبعض المستشفيات التي يمارس فيها الطب الأوروبي. أخيرًا كانت حقيقة أن بريطانيا العظمى سمحت لفرنسا بإرسال بعثتها ميزة كبيرة، حيث أضاف الأمر شرعية للبعثة الألمانية. والفعل في ٤ أغسطس ١٨٨٣، قدم مكتب

الرايخ الداخلي طلبًا إلى مكتب الصحة الإمبراطوري، وأعلن عن تمويل البعثة، واقترح على الفور تكليف كوخ برئاسة البعثة(٦٣).

ويعطى توماس بروك Thomas D. Brock عالم البكتريا الأمريكي وكاتب سيرة كوخ مزيدًا من التفاصيل عن البعثة الألمانية فيذكر: " وضع الألمان خطتهم بسرعة وتم التجهيز للبعثة الخاصة تحت رعاية وزير الداخلية وبدعم كبير من الجيش والبحرية، وفي ٩ أغسطس ١٨٨٣ أُمر روبرت كوخ بقيادة بعثة إلى مصر. ضم أعضاء الفريق الألماني جورج جافكي Georg Gaffky أحد أكثر مساعدي كوخ الموثوقين وبرنارد فيشرBernhard Fischer والطبيب الكيمائي تريسكو Treskow. وشدت هذه المجموعة رحالها إلى مصر مساء يوم ١٦ أغسطس، بعد أسبوع واحد من الإعلان عنها، ولا تزال طبيعة الاستعدادات لتلك البعثة وحجم التجهيزات تصيب من يطالعها بذهول لقد كان الأمر أشبه بتجهيز معمل متنقل كبير قاربت التكلفة الإجمالية له ٣٤ ألف مارك(٦٤). وهو رقم يقارب ٥٠ ألف فرنك التي خصصت لحملة باستير(٦٥). ظُهر يوم ٢٣ أغسطس رست السفينة منغوليا التي تقل البعثة الألمانية في ميناء بورسعيد حيث استقبلها القنصل الألماني، ومكثت تحت الحجر الصحي يومًا كاملًا، لم يضيعه الألمان بعيدًا عن العمل وشرعوا في فحص بعض حالات الكوليرا في بورسعيد. وعندما وصلوا الإسكندرية لم يقيموا مختبرهم في المستشفى الألماني وفضلوا المستشفى اليوناني عنها لكثرة حالات الكوليرا بها. وجد الألمان ترحيبًا من الأطباء هناك حيث وضعوا تحت تصرف إخوانهم الزائرين مختبراتهم، وجميع مرضى الكوليرا، وكذلك جثث أولئك الذين ماتوا بسبب هذا المرض. كتب كوخ لدى وصوله: " لسوء الحظ وباء الكوليرا يبدو أنه يتضاءل، ولكن بالصدفة تمكننا من الحصول على عينات من العديد من مرضى الكوليرا، وكذلك من الجثث، حتى

نتمكن من البدء في دراساتنا. لم أنم حتى منتصف الليل في الليلة الماضية وهذا الصباح كنت مستيقظًا بالفعل في الساعة الخامسة صباحًا"[٦٦]. أجرى كوخ دراسات وبائية بهدف إعطاء وصف الظروف التي عززت ظهور الكوليرا. زار بعض مراكز الحجر الصحي في الإسكندرية، والطور والسويس، من أجل الحصول على فكرة عن فعالية تدابير الحجر الصحي. كما قام بفحص الحجاج لتحديد دورهم في إدخال الكوليرا من مكة حيث يتوطن المرض. كما أجرى دراسات حول إمدادات المياه والترشيح، وتأثير صعود وانخفاض النيل على تقدم الوباء، وعلى الارتباط بظروف الأرصاد الجوية[٦٧].

لقد شرع الفريق الألماني على الفور في اكتشاف البكتريا المسببة للكوليرا .لم يكن هناك شك في أذهانهم أن الكوليرا كانت من الأمراض المعدية التي يسببها نوع معين من الجراثيم أو البكتريا؛ كل ما كان ضروريًا هو استخدام طرق كوخ عزل العامل الممرض أي معرفة البكتريا المسببة للكوليرا؛ فالفريق بدأ من حيث نظرية جرثومية المرض التي آمن بها كوخ وتعنى وجود العلاقة السببية بين أنواع الكائنات الحية الدقيقة والمرض[٦٨].

أنشأت البعثة لنفسها في الطابق الأول من المستشفى قاعتين متجاورتين ومضاءتين جيدًا، كانت الغرفة الأولى مخصصة لعمل الفحوصات الميكروسكوبية والثانية لإجراء تجارب مسببات العدوى على حيوانات معملية. شرعت في دراستها المجهرية وقامت بفحص ١٢ مريضا بالكوليرا و٦ جثث من جنسيات مختلفة، جثثا لأهالي من اليونانيين والنمساويين والأتراك ينتمون إلى شرائح عمرية مختلفة فمنهم الأطفال والمسنين والشباب، تمت دراسة دماء المرضى والقيء والبراز. لوحظ أن الدم لا يحتوي على كائنات دقيقة، وأن القيء كان كذلك أيضًا، بينما كان البراز يحتوي

على أعداد كبيرة منها وهذا عكس التصور الفرنسي الذي ركز على الدم كمصدر لمعرفة المرض. وبالرغم من أن عدد عمليات التشريح التي تم إجراؤها كان طفيفًا، لكنها أسفرت عن نتائج مهمة[٦٩]؛ بسبب كون الجثث تعود إلى جنسيات وأعمار مختلفة، وفترات مرضهم غير متساوية. كانت هناك ميزة كبيرة ساقتها الظروف للبعثة الألمانية؛ وهي إجراء تشريح الجثة مباشرة بعد الوفاة أو على الأقل بعد بضع ساعات. في ظل هذه الظروف، كان من الممكن استبعاد جميع التغييرات التي قد تؤدى إلى التعفن في الأعضاء –وخاصة في الأمعاء – وتحول دون الفحوصات المجهرية لهذه الأجزاء[٧٠].

لم يتم الكشف عن وجود الطفيليات الدقيقة –البكتيريا – سوى في الرئتين، ولكن شكلها وموقعها أظهر أنه لا علاقة لها بالمرض نفسه. لكن في محتويات الأمعاء وفي البراز، ظهرت الميكروبات بأعداد مذهلة وأنواع متنوعة للغاية. وأسفرت الفحوصات لجدران الأمعاء الباقية عن أنواع غريبة من البكتيريا؛ عبارة عن أجسام شبيهة بالفصلة. كانت هذه الحقائق التي تم ملاحظتها على الأشخاص الذين ماتوا مؤخرًا ذات قيمة، حيث لم يكن هناك أي انحراف محتمل لهذه النتائج من التحلل[٧١].

أبرقت بعثة كوخ تقريرًا للسلطة البريطانية في مصر جاء فيه: " إن وباء الكوليرا عمليًا تلاشى في جميع المدن الكبرى في مصر، وأن الوباء لا يزال يظهر بعض الحيوية فقط في بعض قرى صعيد مصر؛ لكن الحكومة المصرية تعارض أية استفسارات علمية تجري في تلك المنطقة على أساس أن الفلاحين لن يسمحوا بإجراء فحوصات ما بعد الوفاة. لذا نطلب مواصلة تقصينا للوباء في مكان آخر وهو الهند، حيث في العديد من المدن الكبيرة –وخاصة في بومباي –لا تزال الكوليرا. وبالفعل حصل على إذن للبعثة بالذهاب إلى الهند [٧٢]. كان كوخ حصيفًا في تقريره فلم

يتطرق لسبب تفشي الوباء وهل هو متوطن أو مستورد من الهند ولم ينتقد مسلك السلطة البريطانية الرافض لفكرة الحجر الصحي وركز فقط على المرض ونتائج تشريحه لبعض الجثث المصابة بالمرض[٧٣]. بل أنه عندما سُأل عن هل الوباء مستورد من الهند أو مستوطن في مصر أجاب: " إن الجزم في هذا السؤال أمر خطير لأنه يجعل مصر على قدم المساواة مع الهند في إنتاج هذا المرض. إنني أعلم أن اللجان التي ذهبت إلى دمياط مع بداية انتشار الوباء اهتمت بهذا الأمر، أود الحصول على تقرير مفصل من تلك اللجان قبل الحديث عن أصل الوباء"[٧٤]. وعند سؤاله عن فاعلية الحجر الصحي أجاب بالقول: "إن المعلومات التي زودني بها الضباط البريطانيين لا شك أنها جعلتني في وضع يسمح لي قريبًا بتزويد سعادتك بحكم موثوق به a reliable judgment[٧٥]". كانت ردود كوخ تلك عاملًا على نيله ثقة السلطات البريطانية والاطمئنان له، خصوصًا وأنه لم يُذع كل نتائج بحثه في مصر قبل أن يستوثق منها في مكان أخر.

في أواخر أكتوبر، تلقت البعثة الألمانية إذنًا بالسفر إلى الهند، وفي ١٣ نوفمبر غادرت المجموعة السويس إلى الهند وحددت في طليعة أهدافها إجراء دراسات مجهرية لعدد كبير من العينات من تشريح جثث موتى الكوليرا لتأكيد الاستنتاجات التي وصلوا إليها في مصر بشأن وجود بكتريا فصلية مميزة في الأمعاء لمرضى الكوليرا[٧٦]. على الرغم من أن كوخ وزملائه كانوا واثقين من أنهم عثروا على "بكتريا" الكوليرا، إلا أن البعض الآخر كان أقل تفاؤلاً. قامت المجلة الطبية البريطانية بترجمة تقرير بعثة كوخ ثم علقت بالقول: "سيكون من غير الضروري أن نقول إن بيانات مثل هذه البعثة تستحق أكبر قدر من الاحترام؛ في الوقت نفسه، يتعين التروي في القبول بها. نتذكر أن البعثة الفرنسية بدأوا بفكرة مماثلة، واعتقدوا أنهم وجدوا ما يبحثون عنه في

الدم، في حين تعتقد البعثة الألمانية أنها وجدته في الأمعاء. . .. من الممكن أن الأدلة التي يقدمها دكتور كوخ على كونها سبب الكوليرا قد يكون لها تفسير مختلف تمامًا على أيدي مراقبين آخرين(٧٧).

كانت الرسائل المتبادلة بين مكتب الصحة الإمبراطوري والبعثة لا تتوقف في وقت لم يكن أفراد البعثة الفرنسية يتوصلون سوى مع باستير في برقيات حملت الطابع الإداري وليس العلمي وكانت على فترات متقطعة. بل إن الحكومة الألمانية دائما ما كانت تتأكد من كفاية الوسائل والإمكانيات التي بحوزة مكتب الصحة، وكانت تعليماتها إلى قنصليتي ألمانيا في الهند ومصر بتقديم كافة المساعدة للبعثة، بالإضافة إلى أن الصحافة المحلية منذ سبتمبر قد شرعت في نشر تقارير البعثة وخطواتها الاستكشافية، ورسم العلاقة بين بعثة كوخ وبعثة باستير في إطار المنافسة الفرنسية الألمانية التي كان القراء على دراية بها منذ أيام مؤتمر جنيف ١٨٧٢. وقالت إحدى الصحف: " إنه بينما سعى الفريق الألماني إلى الحقيقة العلمية، فإن الفرنسيين ذهبوا هناك فقط للتباهي"(٧٨). وما أن وطئت بعثة كوخ الأراضي الهندية حتى شرعت في نقد تقرير البعثة الفرنسية الذي ظهر في نوفمبر ويدعى اكتشاف بكتيريا الكوليرا في مجرى الدم، وجاء النقد معبئًا بالسخرية حيث أكد أن الفرنسيين لم يعثروا على جرثومة الكوليرا فحسب، وإنما هم يخلطون بين الصفائح الدموية والكائنات الدقيقة وهذه يجعل استنتاجاتهم دائمًا خطأ(٧٩).

في كلكتا لاحظ الدكتور كوخ نفس البكتريا في مرضى الكوليرا هناك؛ مما جعله يعتقد في وجود بعض العلاقة الشرطية بين البكتريا الفصلية والمرض، حيث تم العثور عليها في أمعاء جميع ضحايا الكوليرا. لإثبات هذه الافتراضات، كان من

الضروري زراعة تلك البكتريا في بيئة مناسبة ثم محاولة إعادة إنتاج المرض عن طريق تلقيح الحيوانات بها.

في تقرير مؤرخ في الثاني من فبراير ١٨٨٤، أعلن روبرت كوخ من كلكتا عن وصوله إلى السبب البكتيري للمعضلة الطبية الكبرى لأوربا في القرن التاسع عشر، وهى الكوليرا الآسيوية. وباتت تمثل رسالة كوخ الشهيرة نقطة تحول في نظرة العلم للكوليرا[٨٠]. لم ينشر كل استنتاجاته في المجلات العلمية بانتظار العودة إلى ألمانيا؛ ففي ٤ أبريل ١٨٨٤ غادرت بعثته الهند على متن باخرة "بخار"، وصلوا إلى مصر يوم ١٤ أبريل بعد عشرة أيام من مغادرة بومباي، وأمضى بضعة أيام في مصر، لمعرفة المزيد عن حالة الصحة العامة هناك، ولكنه كان يعاني من الملاريا[٨١]. وصل برلين في الثاني من مايو وأعلن عن اكتشافه للبكتريا المسببة للكوليرا وهي البكتريا الفصلية؛ إن الومضة التي انبثقت مع بعثة كوخ استحالت إلى شعاع مزق الظلمة التي كانت تغشى المعرفة الطبية عن مسببات وباء الكوليرا، ومع عودته صار كوخ بطلًا قوميًا وخرجت الصحافة الألمانية تحت عناوين قومية براقة منها "مرحبًا بكم أيها المنتصرون!" و "ألمانيا الجديدة يكسوها الفخر". وتم وصف البعثة حرفياً على أنها انتصارٌ في عمل عسكري يمكن مقارنته بسهولة مع انتصارات الحرب الفرنسية البروسية؛ فمثلما احتفل الشعب الألماني قبل ثلاثة عشر عامًا بانتصار مجيد على العدو التاريخي لقومتيه، فإنه يحتفل اليوم بانتصار رائع على واحد من أكثر أعداء البشرية تهديدًا؛ وهو وباء الكوليرا[٨٢]. ولعل المؤسف في اكتشاف كوخ أنه غزى النزعة الإمبريالية التي ظل بسمارك يجاهد في كَبْتها بغية الحفاظ على مكاسب الحرب السبعينية، واندفع دعاة الكولونيالية في ألمانيا يطالبون بنصيب لدولتهم القوية المتقدمة في الكعكة الأفريقية.

## بريطانيا وثقافة الطب الإمبريالي

كانت بريطانيا العظمى غائبةً بشكل غريب عن السباق الدولي لتحديد ماهية الكوليرا وعلاجها، على الرغم من الدراسات المبكرة لعالمها جون سنو Jon Snow والتي أفضت عام ١٨٥٤ إلى تأكيده على أن الكوليرا تنتقل عن طريق المياه؛ مما عدا كشفًا وقتها[٨٣]. فلقد وضعت بريطانيا مصالحها الاقتصادية أولاً أثناء موجات انتشار الوباء، وسعت بشتى الطرق لتجنب العواقب الاقتصادية لفرض الحجر الصحي –التي توصي بها مؤتمرات الصحة الدولية –على تجارتها عبر قناة السويس، وروجت في سبيل ذلك لنظرية أن الهواء هو حامل المرض وأن إجراءات تحسين الصحة العادية — تحسين الصرف، والحفاظ على نظافة الشوارع — كانت خير وسيلة للحماية من الوباء[٨٤]. بل أن بريطانيا وجدت نفسها وحيدةً في مؤتمر القسطنطينية عام ١٨٦٦ الذي وجَّه سهام النقد إلى الإمبراطورية بريطانية في الهند بوصفها المصدر الرئيسي الذي تنتقل منه الكوليرا إلى أوربا عبر مصر. وربط بين الكوليرا وتجارة الهند وألقاء باللوم على إدارة الحكومة البريطانية، لكن الإنجليز مع ذلك لم يسلموا لهم بنجاعة الحجر الصحي وظلوا يدعمون حرية التجارة[٨٥]. خصوصًا وأن سيطرتهم على مصر أدت إلى ارتفاع صادراتهم بنسبة٢٣% بين عامي ١٨٧٩و١٨٨٣، وكان تفشى الوباء ومطالبة بريطانيا بوضع السفن القادمة إلى اوربا عبر القناة في الحجر الصحي لمدة عدة أسابيع يمثل خسارة اقتصادية كبيرة[٨٦].

لكن النظرة الفاحصة للتقارير والمراسلات التي تم كتابتها وتبادلها المسؤولون البريطانيون خلال وباء ١٨٨٣ تكشف أنهم –بعيدًا عن تجاهلهم المعلن للرأي الطبي العلمي –كانوا مشغولين في الواقع بإثبات المصداقية العلمية لسياساتهم الاقتصادية وسط مناخ من التنافس العلمي السائد إبان انتشار الوباء. لقد باتت بريطانيا بحاجة

لان تكسو مصالحها الاقتصادية بلغة العلم لدعم سياستها الاستعمارية حتى لا تغرد بعيدًا. إن طبيعة التنافس أواخر القرن التاسع عشر هي من دفعت إلى صياغة السياسات البريطانية بلغة الموضوعية والعقلانية.

مع بداية الإعلان عن تفشى الوباء، كانت بريطانيا التي لم يبلغ احتلالها لمصر عامه الأول تواجه بنقد شديد من قبل الفرنسيين تحديدًا؛ فقبل الإعلان رسميًا عن تفشي الوباء في مصر استبق العالم الفرنسي جورج بوشيه Georges Pouchet الأحداث بإلقاء مسئولية إمكانية تفشي الوباء في مصر وانتقاله إلى أوربا عبر بريطانيا فنشر تحقيق صحفيًا ذكر فيه:" إن مسلك الحملة الإنجليزية على مصر عام ١٨٨٢ يصعب لومه بقدر ما ينبغي أن نغبطه؛ فبريطانيا استعانت في حملتها بوحدات من قواتها في الهند خاصة من بومباي موطن وباء الكوليرا غير آبهةٍ بإمكانية انتقال الوباء لمصر(٨٧). وبلغة حادة انتقدت صحيفة فولتير الفرنسية المسلك الإنجليزي قائلة:" لسوء الحظ، لم يتم إغلاق جميع المخارج التي من خلالها يمكن أن تصل هذه الآفة إلينا؛ وذلك لأن القوة البحرية الرئيسية المنوط بها فعل ذلك لم تتخذ أي إجراء لضمان عدم وصول الكوليرا. إذا كان هذا الإهمال سيضر بالسكان البريطانيين فقط فيمكننا تفهم ذلك، ولكن عندما يتم جلب الشر من بورسعيد إلى موانئ بريطانيا العظمى، سيكون من المستحيل تقريبًا منعه من الوصول إلى القارة. إذا تم الإعلان عن وصول الكوليرا إلى أوربا، فإننا ندين اللامبالاة الإجرامية criminelle indifférence التي عرضتنا بالفعل للخطر بسبب مصالحها المادية(٨٨).

في البداية أنكرت بريطانيا وجود الوباء حتى أبرق مندبها بمجلس الحجر الصحي بالإسكندرية ميفيل Mieville إلى القنصل الإنجليزي كوكسون Cookson يخبره أن اجتماعًا غير عادى لمجلس الحجر الصحي أقر بناءً على

المعلومات التي وصلت إليه بوجود الكوليرا في دمياط، وأنه تقرر وضع الوافدين من بعض نواحي دمياط في الحجر الصحي للحفاظ على بقية مصر(٨٩). وفي اليوم التالي أكد وكيل وزارة الخارجية البريطانية عن وجود الوباء وأنه انتقل من دمياط إلى المنصورة وحصد حياة أكثر من ١٨٠ شخصًا(٩٠). كان الشغل الشاغل للإنجليز أمرين أولهما: عدم تأثر بريطانيا اقتصاديا من جراء الوباء بفعل إلزامها بإجراءات حجر صحي قد تسهم في غلق الموانئ المصرية وثانيا: منع تفشى الوباء إلى القوات البريطانية في مصر(٩١). قبلت بريطانيا مكرهةً بوضع حجر صحي على دمياط والمنصورة (٩٢)، بعد توصية اللجنة الصحية المصرية التي شُكلت للنظر في الإجراءات الوقائية لمكافحة الوباء، والتي طالبت أيضًا بضرورة فرض حجر صحي على ربان السفن العابرة لقناة السويس وعلى الوافدين من بورسعيد إلى سائر الموانئ المصرية(٩٣).

لكن ما كانت بريطانيا حريصة على تأكيده منذ البداية؛ أن الكوليرا ليست وافدة من الهند وأنها مستوطنة في مصر لسوء وضع النظافة والصرف والبيئة الملوثة وبالتالي لا دخل لتجارة الهند بالأمر. ورغم أن التقرير الاستقصائي الأول بعد الإعلان عن الوباء في ٢٥ يونيو عجز عن تحديد أصل الوباء إِذْ كان محليًا أو تم استيراده(٩٤). إلا أن هذا العجز الذي ظهر من تقرير لجنة مكونة من عشرة أطباء تسعة منهم من الأجانب ذوي الخبرة، ومن معطيات دراسة ميدانية لموقع الوباء، وبعد فحص معملي للحالات المصابة والمتوفية قابله جزمٌ بريطانيٌ على لسان وزير خارجيته جرانفيل في مجلس اللوردات: بأنه لا ولم يوجد دليل مهم يفيد بأن الكوليرا جلبت على متن السفن القادمة من الهند.

There is not, and never has been, the slightest evidence whatever of the cholera having being brought by ships from India(95)

كان حديث جرانفيل مُؤَسس على تقرير الدكتور البريطاني ماكى وهو جراح استشاري بالإسكندرية وعضو ثاني بمجلس الحجر الصحي بالإسكندرية بعث به في السابع من يوليو؛ خلص فيه إلى أن أسبابا قوية للغاية تدفعه للقول بأن الوباء أصله محلى خلقته المياه الملوثة والجو الذي يشبه مناخ شبه القارة الهندية [٩٦]. وبعد يوم واحد من بيان جرانفيل بعث مندوب بريطانيا في مجلس الحجر الصحي برقية تؤكد سلامة تصور ماكي وبيان جرانفيل فذكر: "إنه وبعد دراسة متأنية، بات من الواضح بما فيه الكفاية أن تفشي الوباء يرجع بالكامل إلى أسباب محلية، وأنه لا يمكن استيرادها –رغم حديثه عن أن اللجنة المشتركة من مجلسي القاهرة والإسكندرية أخفقت في تحديد ذلك– وهناك حقائق بينة broad facts تقود إلى هذا الاستنتاج منها؛ تفشي وباء التيفوس البقري قبيل ظهور الكوليرا ونفى السكان ذلك وبيعهم للحوم الملوثة، وتخلصهم من الحيوانات النافقة بإلقائها في النيل مما أدى إلى تلوث مياه النهر، وجاء الاحتفال بمولد الشيخ أبو المعاطى كفرصة لتجمع الآلاف وبدأت عندها حالات الوفيات في الظهور". ويختم مذكرته بالقول: "إن لي صوتا واحدا فقط من بين اثنين وعشرين صوتا آخرين في المجلس ؛ ووفقًا لروح ونص التعليمات التي نقلت إليّ من حكومة جلالة الملكة، فقد سعيت لتجنب فرض حجر صحي سخيف وغير مجدى، لكنني لم أتلق تعليمات أبدًا للتدخل بأية طريقة للسعي إلى تجاوز لوائح الحجر الصحي التي وضعها المجلس نفسه للحفاظ على مصر حال تطبيقها؛ إنني لم أبذل سوى جهد ثانوي من أجل ضمان عدم فرض قيود غير ضرورية ومثيرة على التجارة والملاحة، لقد فعلت ذلك من أجل إظهار أنه لم يتم تخفيف أية احتياطات نتيجة

التدخل البريطاني[٩٧]. وبالمثل أشارت التايمز إلى تقرير لجنة دمياط، مؤكدة أنه لم يذكر كلمة آسيوي إطلاقا في وصف الكوليرا[٩٨]. بل أنها أكدت مبكرًا أنه لا يوجد أصغر دليل لافتراض أن الكوليرا التي ظهرت في دمياط تم إحضارها من الهند[٩٩].

وبالمثل أعاد السير تشارلز ديلك Sir Charles Dilke رئيس مجلس الحكم المحلي التأكيد على ثوابت السياسة البريطانية فيما يخص الحجر الصحي، في معرض رده على سؤال أحد النواب بشأن الاحتياطات التي يجب اتخاذها لمنع وفود الكوليرا إلى إنجلترا من قبل السفن القادمة سواء من الهند أو من أي ميناء مصري ومطالبته بفرض الحجر الصحي، أشار إلى انه بالعودة إلى التقرير السنوي الثامن لطبيب المجلس الملكي الخاص السيد سيمون Mr. Simon والذي عرض على البرلمان عام ١٨٧٩ وخلص إلى أن الحجر الصحي غير فعال وأنه مجرد تعويق غير منطقي للتجارة. فالحجر الصحي من النوع الذي يستبعد من الدخول الأشخاص الذين من الواضح أنهم معافون ولكن وفدوا من أماكن بها العدوى لم يسفر عن نتائج تشجع على تكراره. هناك نظام جديد حصل على موافقة معظم الدول الأوروبية (كما عبر مندوبوها في مؤتمر فيينا لعام ١٨٧٤) هذا النظام يحمل اسم "التفتيش الطبي" يهدف إلى الحصول على عزل الأشخاص المصابين بالفعل، وتطهير السفن والمواد التي ربما تكون قد تلقت عدوى من المرضى[١٠٠] بل إن البواخر القادمة من الهند عبر قناة السويس ولم تلمس أي ميناء مصاب، فلن نقوم بفحصها.[١٠١] ولعل ذلك يفسر إلغاء الحواجز بين المدن المصرية بعد أقل من أسبوعين بحجة أنه ثبت عدم فعاليتها في إيقاف انتشار المرض[١٠٢].

كانت الانتقادات التى طالت تعاطى سلطات الاحتلال قد باتت موضوع مسائلة يومية في مجلس العموم، حيث طالب نواب المعارضة بإيضاحات حول صحة

اعترض المندوب الإنجليزي في اجتماع مجلس الحجر الصحي بالإسكندرية في ١٤ مايو –بناء على تعليمات من اللورد جرانفيل –على الإجراءات المزمع اتخاذها بإخضاع السفن القادمة من بومباي للحجر الصحي، من أجل منع الحاق الضرر بالمصالح التجارية. وما صحة ما جاء في "الجريدة الرسمية" المصرية من أن راكب عربي من بومباي، في سفينة بخارية" تدعى تيمور"، هبط في بورسعيد في ١٨ يونيو دون أن يكون خضع لأية لوائح الحجر الصحي، وانتقل إلى دمياط قبل يومين من تفشي الكوليرا؟[١٠٣]. ردت الحكومة على لسان وكيل وزارة الخارجية اللورد إدموند فيتزموريس lord Edmond Fitzmaurice بأن قصة السفينة تيمور غير صحيح، وبالنسبة للأمر الأول فصحيح أن المندوب البريطاني صوت ضد هذا القرار ؛ لكن على أساس أن الضباط الطبيين في بومباي أعلنوا أن الكوليرا فى بومباي ليست وباء، وكان تصويته بناء على رأيه الخاص في هذه المسألة، وليس بناء على تعليمات من اللورد جرانفيل . وعند سؤال وكيل وزارة الخارجية، عما إذا كان صحيحًا أنه تم إدخال طاعون الأبقار في العام الماضي من أوديسا إلى مصر مع الماشية التى أرسلت لتزويد القوات البريطانية؛ أجاب بأن وزارة الخارجية ليست على علم بأن طاعون الماشية قد تم إدخاله إلى مصر بالطريقة التي ذكرها النائب؛ ولكن لديهم سبب للاعتقاد أنه كان سائدا لبعض الوقت في أجزاء من مصر [١٠٤].

لم تزعزع حملات النقد بريطانيا عن مأربها، بل إنها أَوْمَأَت إلى غياب المبرر لحالة الذعر التى عمت أوربا –وخاصة في فرنسا –؛ فالوباء مقتصر على دمياط والمنطقة المحيطة بها، ومقدار الهلع الفرنسي لا يتناسب مع الحجم الفعلي للمرض في مصر. ولعل مبعث الاطمئنان الإنجليزي أنه لم تسجل أية حالة وفاة بسبب الكوليرا بين القوات البريطانية في مصر في الأيام الأولى لانتشار الوباء، وأن سلطة الاحتلال

احتاطت بشكل كاف لتامين جنودها عبر توفير الكثير من المطهرات، وإرسال تعليمات تفيد بأنه في حال تسلسل الوباء إلى القوات البريطانية يجب اتباع نفس الإجراءات التي تتخذ في ظروف مماثلة في الهند(١٠٥). علاوة على ذلك، تم تشكيل لجنة بريطانية مستقلة لزيارة منازل البريطانيين والمالطيين المقيمين في الإسكندرية. وقد تم عزل المنازل المصابة بواسطة مجموعة من الشرطة(١٠٦).

في المقابل، لم تكن النخبة الاستعمارية البريطانية تكابد مرارة النقد الفرنسي ووسمها بالأنانية فحسب، وإنما ووجهت بحملة نقد داخلية من علمائها وأطبائها. فلقد هال هؤلاء تدهور سمعة بريطانيا العلمية مقارنة بأوربا القارية؛ فكتب إدوارد هارت أحد محرري المجلة الطبية البريطانية متسائلا: " لماذا كانت جميع الاكتشافات الرئيسية في علم الأمراض المدارية صنعها أجانب –فرنسيون وألمان وحتى يابانيون –وليس بريطانيون في عصر التنافس الإمبراطوري". لقد دفعت الغيرة القومية ببعض العلماء للمطالبة ببذل المزيد من الجهد للحفاظ على سمعة بريطانيا العلمية(١٠٧). تصادف ذلك مع تزايد الخوف من الكوليرا في الداخل البريطاني، وتواتر أسئلة الجمهور حول ما يمكن فعله للسيطرة عليها، وللحد من هذا القلق، أكد السياسيون والصحفيون والمحاضرون للجمهور المتوتر أن الحس البريطاني السليم نفسه ومنظومة النظافة والصحة القوية التي كان لها الفضل في الحفاظ على البلاد خالية من الكوليرا لعدة سنوات ستستمر في حمايتهم(١٠٨). ومع ذلك، ضاق الخناق على رجال السياسة البريطانيين خصوصًا مع تردد رواية عن طريقة انتشار الكوليرا ظهرت فى البداية على كونها تخمين ثم صارت محض حقيقة من كثرة الروايات التي تدعمه. ومفاد هذه الرواية كما ترصدها برقية الدكتور ماكي الجراح البريطاني وعضو المجلس الحجر الصحي بالإسكندرية إلى جرانفيل بأن الكوليرا حلت مصر على متن السفن الهندية؛

ففي رسالة للدكتور النرويجي فلود الذى يعمل بمكتب صحي حكومي في بورسعيد بعث بها إلى المجلس الصحي بالقاهرة ونشرت في "Moniteur Egyptien" في التاسع من يوليو كتب: بأنه بتاريخ ١٨ يونيو ١٨٨٣ نزل مواطن من صعيد مصر يدعى محمد خليفة يعمل وقَّادًا على متن سفينة بريطانية تدعى " تيمور" "متجهة من بومباي إلى نابولي بمدينة بورسعيد التي غادرها سريعًا إلى دمياط وأنه ما أن غادرت السفينة الميناء حتى بدأت الأفة في الظهور. ويختم ماكي برقيته بالقول: مما يؤسف له كثيرًا، أن هذه التقارير لها مؤيدوها هنا وفي أوربا" This is much to be regretted، as these reports have their advocates here and in Europe.[١٠٩] وعادت الصحف الفرنسية مواصلة مسيرتها الناقدة، وأوردت إحداها خبرًا يفيد بأن أطباء جيش الاحتلال البريطاني يساورهم الاعتقاد نفسه من أن مصر ابتليت بالكوليرا الآسيوية المستوردة[١١٠]. وما زاد الأمور تعقيدًا ما نشرته المجلة الطبية البريطانية من أن برقية وصلتها من مراسليها الطبيين بالإسكندرية فى ١١ يوليو تفييد بأن المجلس الصحي في القاهرة يؤكد أن وباء الكوليرا المتفشي تم استيرادها من الهند، ولكن لم يقدم دليل على ذلك حتى الآن[١١١]. أخيرًا ما كان يليق ببريطانيا التي صارت حاكمة فعلية لمصر أن تقف مكتوفة الأيدي أمام تفشي وباء كوليرا خصوصًا وأن منافسيها الأوربيين قد هموا بإرسال بعثة علمية لتقصى أسباب الوباء وسبل منعه من دخول الأراضي الأوربية كما حدث في عام ١٨٦٦.

## بعثة هنتر: صراع الحقائق والأكاذيب

كان ارتفاع مساحة النقد الدولي دافعًا للإنجليز للتفكير فى اتخاذ إجراء سريع، فنعقد اجتماعًا في الثاني عشر من يوليو للجنة شُكلت لدراسة موضوع الكوليرا في مصر واحتمالات غزو الوباء الأراضي البريطانية . كان هناك عدد غفير من الحضور

مثل السير تشارلز ديلك، والسير فيرنون هاركورتSir Vernon Harcourt والسير ليون بلايفير Sir Lyon Playfair ودكتور بوكانان Dr Buchanan والدكتور كونينجهام Dr Cuningham والجميع يمثلون لجنة شكلها المجلس المحلي البريطاني برئاسة ديلك؛ وحسب مذكرات جوزيف فيرير Joseph Fayrer رئيس المجلس الطبي لوزارة الهند الذى حضر الاجتماع يقول: " استغرقنا وقتًا طويلًا جدا في المناقشة، وجدت فيها نفسي غير متوافق مع بعض التوجهات، بعدها ذهبت إلى وزارة الخارجية مع السير ديلك واللورد فيتزموريس وأعطيتهما وجهة نظري بضرورة إرسال بعثة طبية برئاسة الدكتور ويليام هنتر إلى مصر للمساعدة في التعامل مع الوباء وتم العمل بنصيحتي، وطُلب مني تحديد عناصر طبية أخرى للمشاركة فى البعثة، بعد ذلك شكرني اللورد جرانفيل رسمياً على خدماتي[١١٢]. بعده بيومين أبرق جرانفيل إلى هنتر يخبره بأنه وقع الاختيار عليه للذهاب إلى مصر لمعرفة أصل وطبيعة وباء الكوليرا الأَخذ في الانتشار في مصر وما هي الإجراءات التي يجب اتخاذها للقضاء عليه ومنع تكرر حدوثه[١١٣] .

هكذا ولدت البعثة البريطانية، لكن اختيار هنتر تحديدًا كان مثار ريبة للبعض مبعثها التشكيك في موضوعية المعايير التي اختير لأجلها. ولعل فيرير عندما ذكر سبب اختيار هنتر اكتفى في مذكرته بالقول: إنهما جمعتهما صداقة قديمة وانه مصدر ثقة[١١٤]. فلقد تدربا معًا في مستشفى تشارينج كروس، وكلاهما شارك في الأنشطة الصحية مع الجيش البريطاني في الهند. ولعل مبعث تشكيك البعض هو كون هنتر ليس من الأسماء ذائعة الصيت في مجال دراسة الكوليرا، كما أن الحكومة البريطانية رفضت طلبًا للجراح الإنجليزي نوتيدج ماكنمارا • Nottidge MacNamara رائد دراسات الكوليرا الآسيوية في ذلك الوقت في فبراير ١٨٨٣ للعمل على علم

جراثيم الكوليرا في مصر. جاء في خطاب الرفض الذي بعث به إيرل كيمبرلي وزير الدولة للشؤون الخارجية: إنه وبعد التشاور مع فيرير تم رفض الطلب رغم أنني متأكد من مؤهلات وحماس ماكنمارا لكني لا أشاركه آرائه حول أصل الكوليرا[١١٥] كان ماكنمارا قد وصل إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن الهند هي الموطن الأصلي للكوليرا وأن الوُفد الأولى للوباء في مصر عام ١٨٣١ كان متزامنا مع عودة الاتصال التجاري بين مصر والهند عبر مياه الخليج العربي والبحر الأحمر؛ فحسب إحدى دراساته فإنه في مايو ١٨٣٠ رست السفينة البخارية هيو ليندسيHugh Lindsay قادمة من بومباي إلى السويس بعد أن شقت عباب المحيط الهندي وعبرت مياه الخليج العربي في مدة اثنين وثلاثين يومًا[١١٦]. ويضيف إلى أن وباء انتقل مباشرة من بومباي إلى شبه الجزيرة العربية، وأن المرض تفاقم بضراوة مخيفة بين الحجاج في مكة؛ وانتشر معهم إلى سوريا ومصر والدولة العثمانية وبعد ذلك غزا شمال أفريقيا[١١٧]. وعليه يكون المرض قد وفد للمنطقة من خلال عودة الحياة لطريق الهند القديم ووجد ضالته في تجمع الحجاج في الأراضي المقدسة لينتقل عبرهم إلى بلدانهم عند عودتهم بعد قضاء المناسك. كانت آراء ماكنمارا تلك متصادمة مع التوجه العام للسياسة البريطانية، في وقت كان هنتر أحد أبواق السياسية الطبية البريطانية.

ما حدث مع ماكنمارا يدعمه ما ذكره السير رونالد روس الفائز بجائزة نوبل في الطب من أن الحكومة وقادة الخدمات الطبية الهندية أعاقوا باستمرار عمله في بحثه عن طفيل الملاريا في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، على الرغم من أنه لم يكن معاديا للإمبريالية[١١٨]. وهو أمر يؤكده أرنست هارت بقوله: إن السلطات الأنجلو–هندية اعتبرت البحث العلمي "إزعاجًا إداريًا"، وأنها اتبعت مسارًا "للمحافظة " على قناعتها بدلاً من السماح بأبحاث جديدة مثيرة للجدل"[١١٩].

ولعل ما يؤكد فكرة أن الإدارة البريطانية كانت حريصة على أن يكون مبعوثها العلمي لمصر متوافقًا مع توجهاتها الاقتصادية ما جاء على لسان اللورد فيتزموريس في مجلس العموم في ٢٠ يوليو عند سؤاله عن طبيعة لجنة هنتر وموقف الحكومة المصرية منها، أجاب بالقول:" إن الحكومة المصرية ليست مستعدة فحسب للتعاون مع بعثة هنتر، بل حريصة على الاستفادة من خدماته، وأن اللجنة سوف تُوجه الحكومة إلى ضرورة الالتزام بإجراءات الوقاية الصحية والنظافة وعدم الإسراف في تدابير الحجر الصحي.[١٢٠] بل أن جرانفيل وضع ضمن فريق هنتر ميفيل والدكتور ماكي وكلاهما عضوان في مجلس الحجر الصحي بالإسكندرية أي أنهما جزء من الإدارة البريطانية في مصر كما أنهما دافعا بشدة عن كون الوباء ليس مستوردًا من الهند ولا يجدى معه الحجر الصحي[١٢١] . ومن ثم يتضح أن هنتر قادم لتقديم قناعات بريطانية راسخة في صورة نصائح علمية طبية، أَمَلها عمله الميداني وتقصيه لأسباب المرض.

في المقابل، تشير الصحف الفرنسية إلى أن شريف باشا رئيس مجلس النظار (أغسطس ١٨٨٢–يناير ١٨٨٤) كان رافضًا لفكرة إرسال البعثة الإنجليزية وأن لورد فيتزموريس أكد أنه بالرغم من أن حكومة شريف باشا قدمت تأكيدات باتخاذ إجراءات فعالة في مكافحة المرض إلا أن الحكومة الإنجليزية ماضيه في تحقيق ما وعدت به من إرسال بعثة طبية[١٢٢]. ولعل أول إشارة عن طلب بريطاني لمساعدة شريف باشا ترد في صورة برقية مقتضبة في التاسع من يوليو من جرانفيل إلى السير ماليت" يطلب منه أن يبلغ شريف باشا رغبة حكومة صاحبة الجلالة في مساعدة الحكومة المصرية في تنفيذ أية إجراءات تراها ضرورية لمنع لتفشي الكوليرا[١٢٣]. وعاجله شريف باشا بالرد: "إننا لا نشعر بأننا بحاجة إلى المساعدة، حيث يبدو أن وباء

الكوليرا آخذ في الانخفاض بالفعل، ولقد اتخذنا جميع التدابير التي حتمتها الظروف، وقررنا حتى مشاركة الأطباء الذين لا يعملون لدى الحكومة وإرسالهم إلى أماكن تفشى الوباء، ولن نترد في مناشدة حكومة جلالة الملكة للمساعدة إذا لم يقل الوباء[١٢٤]. مع ذلك قررت الحكومة البريطانية تجاهل شريف باشا وإرسال البعثة وأبرقت تسأل الحكومة المصرية عن التدابير التي اتخذتها بهدف القضاء على الكوليرا، وما إذا كان قد سمح للأطباء الأوربيين بالذهاب إلى أماكن انتشر المرض لأنهم يعتبرون أنه من الأهمية بمكان تأمين خدمات الأشخاص ذي المهارة والخبرة العالية فيما يتعلق بهذا المرض. وفى البرقية ذاتها أرسلت تبلغ قنصلها بنَّبأ مجيئي هنتر في ٢٠ يوليو بهدف معرفة طبيعة المرض المنتشر، وإبلاغهم ما إذا كانت هناك أي تدابير إضافية يجب أن تحث الحكومة المصرية على اتخاذها[١٢٥].

لقد كان التأخر البريطاني عن اتخاذ أية تدابير ملموسة متعمدًا؛ حتى تظهر الدولة المصرية بمظهر العجز عن إدارة الأزمة وتبرر وصايتها على المصريين. كما أن شريف باشا أحد رجال الحركة الوطنية قبيل الاحتلال لم يكن يحظى بتأييد رجال الإدارة البريطانية، وكانت لندن حريصة على إقصائه؛ فذكرت التايمز: "لقد أصبح الانهيار التام للإدارة المصرية بأكملها واضحًا في أزمة الكوليرا، ولم يعد هناك ما يمنع من إقالة الوزارة "النظارة" الحالية، لكن من المستحيل العثور على رجال أقل عجزًا في تلك البلاد. إننا نواجه تقريبًا خيارًا واحدًا وهو القيام بالإدارة الكاملة لتلك البلد، أو نتركها تعاني في مستنقعها stew in its own juice[١٢٦] .

وصل هنتر إلى القاهرة في ٢٦ في يوليو ١٨٨٣ وكانت سلطة الاحتلال استبقت مجيئه بإرسال فريق طبي من سبعة أطباء أوربيين وستة من المصريين أُوربيّ التعليم إلى الأماكن المتضررة[١٢٧]. بدأ هنتر التحقيق في وباء الكوليرا بالتعاون مع

عشرة أطباء إنجليز، وفدوا معه لمساعدته في مهمته. وللتو حضر اجتماعًا للمجلس الصحي بالقاهرة والذي كان ينعقد بشكل شبه يومي، وانتخب عضوا فيه. كما اشترك في لجنة حكومية برئاسة ناظر الداخلية خيري باشا وعضوية نظار الخديوي المقيمين في القاهرة والسير إيفلين وود وبيكر باشا والدكتور سالم باشا وأنيط بتلك اللجنة–من خلال لجنة فرعية–الإشراف على تطهير الشوارع والمنازل، وحرق بيوت القرى الصغيرة المصابة، وإنشاء المستشفيات(١٢٨).

لم تمر سوى عشرة أيام حتى أبرق هنتر إلى ماليت يوضح له أنه يمضي في تنفيذ الخطة فيقول: "إنني أحضر يوميًا اجتماعات المجلس الصحي بالقاهرة، وأُلقى على مسامع الحضور مجموعة من النصائح: أهمها عدم إمكانية الاستفادة من تطبيق الحجر الصحي وأن الهند نفسها لم تعد تطبقه، وضرورة تطبيق نظام للصرف الصحي محكم"(١٢٩). توالت برقيات هنتر ومساعديه إلى رجال الإدارة البريطانية؛ فمثلًا أرسل الرائد مكادونالد الضابط البريطاني وأحد مرافقي هنتر في رحلته بالدلتا برقية لما يعتبره أدلة جيدة جدًا ومفادها: أن دمياط شهدت وجود حالات معزولة لمصابي الكوليرا في المدارس القبطية واليونانية ابتداء من شهر مايو؛ مما يعنى وجود المرض قبل الإعلان عنه(١٣٠). وكذلك تقرير للدكتور ماكي الذي أعاد فيه ما ذكره في برقيته في السابع من يوليو بأن لديه يقين على أنه المرض وبائي في مصر أسهمت ظروف معينة في إعادة تفشه، مؤكدًا على إصراره بأنه يمكن الوقاية منه عن طريق الصرف الصحي الجيد.

وقبل أن يرفع هنتر تقريره النهائي استبقه ماليت ببرقية إلى جرانفيل يبلغه بأنه تلقى تقريرًا من هنتر بعد جولته التفقدية في الأحياء التي تأثرت بالكوليرا، وأنه وجد دليلا على وجود وباء التيفويد قبل تفشي الكوليرا، وأنه لديه شكوك خطيرة في أن الكوليرا متوطنة في مصر منذ وباء عام ١٨٦٥(١٣١). ويبدو من لهجة ماليت أن لجنة

هنتر وصلت لمخرج علمي لممارسات سلطة الاحتلال. تلي ذلك تقرير المجلة الطبية البريطانية التي تنبأت بما يمكن أن يحتويه التقرير بالقول: إن دكتور هنتر قام بعمل جيد في مصر، وأثبت قدراته ومهارته الإدارية وخبرته العلمية القيمة. لقد بات وباء الكوليرا على وشك الزوال ومهمته ستنتهي قريبًا؛ إلا إذا وُجدت حاجة لبقائه من أجل إعادة تنظيم المنظومة الطبية المصرية التي ثبت أنها رثاء؛ ويبدو أن تحقيقات الدكتور هنتر تثبت أن الكوليرا كانت موجودة في مصر قبل تفشي المرض بوقت طويل دمياط[١٣٢].

وما هي إلا الأيام حتى خرج تقرير البعثة البريطانية على عجل، عجلة خلقتها تزيد يقين المصريين والأوربيين القاطنين بها على حد سواء؛ إلى أن الوباء الذي فجع البلاد وفد إليها من الهند، على متن سفن التجارة البريطانية[١٣٣]. لقد جاء ليعطي لنا نظرة للعقلية الاستعمارية البريطانية التي تركز على العلاقة بين علم الجراثيم والوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في ذلك الوقت. فقد جاء في التقرير: أن هنتر وبعثته على مدار أقل من أسبوعين تفقدوا بعض المدن والقرى شملت دمياط وحواضر الدلتا، وأن البعثة وجدت في كل مكان دلائل صارخة على انتهاك القوانين الصحية السائدة، فحيثما تولى وجهك ستجد الأنهار والقنوات في مصر بدلاً من حمايتها كما يجب، تستخدم كوسيلة للتخلص من جميع الحيوانات الميتة والفضلات والقمامة والقذارة من كل نوع. ففي فرع دمياط مثلًا نجحنا في إزالة ٥٦٨ جثة من الأبقار التي ماتت بسبب التيفوس. ثم ينتقل إلى ذكر المقابر؛ التي يعتبرها المصادر الرئيسي للأمراض لقربها من المساكن وانبعاث الروائح الكريهة منها. ويتعجب من كون حلاق القرية هو المسجل لما يعتبره السبب الوفاة، ثم يمنح تصريحًا للدفن. ويوجه سهام نقده للمستشفيات واصفًا إيها بالمتداعية إلى حد كبير والقذرة والصاخبة، والتي

مع ذلك من النادر جدًا أن يتمكن الأشخاص الذين يعانون من المرض من تلقى العلاج على يد طبيب بها؛ إلا إذا كان من علية القوم، مثل الأقباط واليهود واليونانيين والمسلمين الأغنياء (١٣٤). بعد حالة الوصف تلك التي صورت مصر كأرض يباب لا شيء فيها غير صفير الموت القادم من خلاء التاريخ، كان هذا الوصف طبيعيًا لإطفاء صفة الموضوعية على النتائج التي سيفرد لها مساحة كبيرة. انتقل التقرير إلى التأكيد على أن البعثة خلصت إلى كون الوباء متوطنًا في مصر وليس مستوردًا، وبدأ يسوق الشواهد: " فمثلًا كان الإسهال شائعًا جدا قبل ١٨٨٣ ويسمي محليًا " الكوليرين"، وكان غير معروف السبب، وتفيد شهادة الأطباء الأوربيين أن الحالات "المصاب بالكوليرا لوحظت خلال السنوات الماضية في الإسكندرية، كما أن دمياط مصدر المرض لوحظ فيها حالات وفاة لمصابين بمرضى الكوليرا قبل شهرين من تفشي الوباء(١٣٥). ووفق تصور هنتر فإن العديد من حالات الإسهال المزعومة كانت أمثلة على ما يجب أن نسميه الكوليرا في الهند؛ وعليه فإن الكوليرا كانت موجودة ومتوطنة في مصر قبل تفشيها عام ١٨٨٣.

وينقل التقرير دليلًا أخر في وهو خطاب بين طبيبين أوربيين من الإسكندرية يؤكدان على أن الكوليرا متوطنة في مصر وأن الظروف البيئة والجغرافية والمناخية في مصب نهر الجانج منبع الكوليرا الآسيوية تشبه إلى حد كبير الوضع في دمياط؛ مما يعنى أن البيئة في دمياط قادرة على إنتاج الكوليرا وليست بحاجة لاستيرادها من الهند، خصوصًا وأن الفحص الكيميائي والميكروسكوبي للمياه في دمياط يدل على أن المياه التي يشربها السكان كانت في حالة من التعفن (١٣٦). كما يستشهد التقرير بخطاب من طبيب أوربي مقيم بمصر يدعى دوتريو Dutrieux إلى شريف باشا يؤكد وجود الكوليرا قبل الإعلان عنها(١٣٧). ويعطى التقرير مساحة كبيرة لتكذيب قصة

الباخرة تيمور، حيث أورد رسالة من الدكتور حسن باشا محمود رئيس المجلس الصحي والحجر الصحي بشأن تحقيق تم مع المواطن محمد خليفة من مديرية قنا والذي يعمل وقادًا للباخرة تيمور وثبت أنه وصل إلى دمياط صباح يوم الأحد الموافق ٢٤ يونيو ١٨٨٣ وأن الإعلان رسمياً عن ظهور الكوليرا في دمياط كان يوم ٢٢ يونيو، ومكث في دمياط حتى ١ يوليو ١٨٨٣ بصحة ممتازة. وشعر مساء هذا اليوم بالقيء والإسهال الطفيف، ما لبث أن برئ منه(١٣٨). ويختم هنتر تقريره بالقول:" في مواجهة مثل هذه الحقائق المذكورة أعلاه، فإنه لا يستحق مناقشة تلك القصص التي تنسج عن استيراد المرض من الهند إلى مصر عبر أحد ركاب السفينة البخارية "تيمور" (١٣٩).

لقد جاء التقرير غاصًا بالشهادات التي جمعها هنتر من أطباء أوربيين عاملين في مصر تؤكد – حسب تأويله–سلامة منطقه، ولعل أحدهم وهو الدكتور سييرا Sierra، كان يخشى أن تستخدم تصوراته الأولية والتي لا تعدو أن تكون توقعات على أنها حقائق، فكتب إلى هنتر معبرًا عن قلقها بشأن الاستخدامات المحتملة ل شهادته، قائلًا:" لا أحب أن يقوم أي شخص بتقديم نتائج مجتزئه من رأى من أجل إثبات أي نظرية، فإثبات الاستيراد للمرض يأتي بالتحقيق الدقيق قبل قبوله، كما أن مسألة أن الجراثيم المعدية يتم إنتاجها تلقائيًا هو بيان أيضا لا يوجد حتى الآن دليل مستمد من التجربة على صحته(١٤٠).

على كل لم يقم هنتر كثيرًا في مصر؛ فتحت وطئت المرض واعتلال صحته غادرت البعثة مصر في ١٣ سبتمبر(١٤١). وأرسل ما يفيد بتلقيه وأعضاء بعثته كامل استحقاقاتهم من قبل الحكومة المصرية وأن الحكومة المصرية استبقت اثنين منهم للعمل في القسم الطبي الخاص بالجيش المصري(١٤٢) . وعند مغادرة البعثة الطبية البريطانية

ودعهم سالم باشا رئيس المجلس الصحي بالقاهرة وأعرب عن امتنانه لمجهوداتهم في مساعدة الحكومة في مكافحة الوباء والعمل في ظل الظروف الصعبة(١٤٣). يبدو أن النتائج التي حصل عليها هنتر والوفد المرافق له قد أرضت الحكومة البريطانية، حيث حصل على وسام القديس سانت مايكل وسانت جورج.

## بعثة كلاين وجيبزوجولة من السفسطة البريطانية

أعادت نتائج بعثة هنتر الحماس مجددًا لماكنمارا؛ ليظهر بوضوح معارضته لسياسية حكومته المروجة لكون الكوليرا باتت وباءًا مستوطنًا في مصر؛ فأبرق في الثالث عشر من أكتوبر ١٨٨٣ إلى خيري باشا ناظر الداخلية يدحض فرية حكومته وينتصر لما اعتقده حقائق علمية فقال: "إذا كانت الكوليرا الآسيوية متوطنة في مصر منذ ١٨٦٥ فلماذا لم نسمع عنها قبل ١٨٨٣، وكيف كان المرض خاملًا طوال العمليات العسكرية في العام الماضي؟ الحقيقة هي إن الوباء وفد لمصر خلال العمليات العسكرية والبحرية العام الماضي؛ فلقد أدت إلى اختراق عمل اللجنة الصحية الدولية التي تقضى بضرورة الحجر الصحي؛ ووفد إلى مصر عدد كبير من القوات الهندية – موطن الكوليرا–دون إخضاعهم للحجر وبمجرد أن حل موسم الصيف وقت نمو جراثيم الكوليرا تفشي المرض". وختم برقيته بالقول: "لقد فعلت الحكومة الإنجليزية–وبالطبع أولئك الذين عينتهم–كل ما في وسعها لتجاهل الحقائق الواضحة"(١٤٤). أثارت برقية ماكنمارا استياء الإدارة البريطانية وطالب هنتر بنسخة منها من اللورد كرومر الذي كتب يعبر عن استيائه من مسلك ماكنمارا معبرًا – في الوقت نفسه–عن عجزه في منعه من الكتابة لكونه ليس موظفًا حكوميًا nothing can be done to stop him writing، as he is not a Government servant(١٤٥)

مكثت نتائج لجنة هنتر غير بعيد، قبل أن تعاود سهام النقد للنيل منها؛ هذه المرة عبر دراسة للطبيب الأمريكي جون باتريس john peters الذي أكد عدم سلامة ما توصله له هنتر من أن الكوليرا بات مستوطنًا في مصر وأن أصل الموجة التي شهدتها البلاد عام ١٨٨٣ محليًا وليس مستوردًا. وأردف باتريس: " إن الفرضية التي بنى عليها هنتر نظريته هي أن بومباي موطن الكوليرا لم تعاني من هذا الوباء في تلك الفترة وهذا غير صحيح؛ حيث كان هناك ٨٤ حالة وفاة في المدينة في يونيو ١٨٨٣ وقبل نهاية العام كان هناك ٣٧٩٥٤ في المقاطعة بأكملها، مشيرًا إلى أن القنصل البريطاني والذى كان عضوًا في المجلس الصحي المصري افتخر بأنه خاض الكثير من المعارك مع زملائه من أجل مصلحة مالكي السفن البريطانيين والتجارة الإنجليزية في الشرق. ويعود باتريس لبسط حججه على عدم سلامة رأى هنتر بقوله: " إن الإجراءات السريعة التي اتخذت بعزل دمياط والأماكن المحيطة بها والتي لم تسمح لأحد بالدخول أو الخروج –حتى المستلزمات والأدوية – كانت كفيلة بوقف انتشر المرض، لكن الوباء أخذ في الانتشار بالفعل في عموم مصر. إن التفشي المفاجئ للمرض لا تجعلنا نقبل بأن المياه الملوثة كانت السبب فقط في ظهور الوباء. إن الدفع بالتلوث وإلقاء الحيوانات النافقة في النهر ظاهرة عامة في مصر منذ وقت طويل ومع ذلك لم تعاني البلاد من الكوليرا منذ ١٨٦٥". وأنهى حديثه بنقل ما خلصت إليه دراسة الطبيب الإيطالي دي كاسترو والتي نشرها في ميلان عام ١٨٨٤ من أن الكوليرا التي عرفتها مصر عام ١٨٨٣ على الأرجح تم استيراده من الهند[١٤٦].

كما نالت حملة هنتر نقدًا من عالم الأحياء البريطاني توماس هكسلي في خطابه السنوي كرئيس للجمعية الملكية للطب نهاية عام ١٨٨٣، حيث أدلى ببيان عام حول تعامل حكومته مع وباء الكوليرا قال فيه: مما يؤسف له بالتأكيد أن فرصة تفشي

مرض الكوليرا في مصر لم يتم استغلالها لأغراض البحث العلمي في سبب الوباء... أن هناك علماء من الشباب الشجعان في هذا البلد مستعدين بما يكفي لتحمل العمل في ظل المخاطر؛ فمن المؤسف أن نترك مشروعًا لا يتطلب جرأة أكبر من استكشاف القطب الشمالي أو أفريقيا لألمانيا وفرنسا، مشروع سيكون ذا قيمة أكبر بألف مرة للبشرية من معرفة نفايات الجليد القاحل أو البربرية الشديدة لخط الاستواء[١٤٧].

مع ذلك كانت تلك معارضة فردية ولا يمكن أن تكون مصدر إزعاج لبريطانيا، لكن نشر كوخ لما توصل إليه في فبراير ومايو ١٨٨٤ كان مما يصعب تجاهله. فعلى الرغم من أن نتائج بعثة كوخ تغاضت عن مسألة منشأ وباء الكوليرا وصوبت ترسانة معاملها لمعرفة سبب وباء الكوليرا بصفة عامة وسبل علاجه؛ فإن نتائجها لم ترق للإنجليز بعد تأكيدها على نظرية جرثومية الكوليرا. فلندن لم تَأْلُ جهدًا فى مقاومة تفسيرات نظرية الجراثيم للكوليرا طالما يمكن العثور على أسس علمية للقيام بذلك؛ لأنه إذا كان سبب الكوليرا كيانًا ميكروبيولوجيًا، فمن المؤكد أنه يمكن نقله عن طريق السفن، وبالتالي فإن قيود الحجر الصحي المتفق عليها في مؤتمري القسطنطينية وفيينا يجب تعزيزها؛ مما سيضرر دون أدنى شك بالمصالح التجارية البريطانية[١٤٨]. فنظرية جرثومية مرض الكوليرا التي خرج بها كوخ تعنى أن تفشي الكوليرا ليست مستوطنة بشكل حصري في مناطق معينة ولكنه وباء معدي وعالمي الطابع، وهو أمر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة الحجر الصحي. فمصر لم يندع فيها الوباء لكونه كان مستوطنًا فيها بقدر ما إنه وباء عالمي ليس له حدود. وهذا تصور يؤثر على مناطق التواصل العالمي وفى القلب منها قناة السوس الشريان الحيوي لتجارة الإمبراطورية البريطانية[١٤٩]. ويمكن معرفة حجم الصدمة التي عايشتها بريطانيا على وقع خروج تقرير كوخ ؛ عند مطالعة البرقية التي بعث بها جرانفيل إلى

المسؤولين الإيطاليين في مارس ١٨٨٤ بشأن عدم جدوى مؤتمر الصحة الذى دُعي إليها في روما والمقرر له مناقشة الحجر الصحي كوسيلة وقائية من أوبئة الكوليرا، حيث قال كرومر :" إن الحقائق العلمية المتعلقة بالكوليرا لم تثبت أنها معدية وأن هذا الموضوع تم دراسته لسنوات عديدة في الهند البريطانية من قبل السلطات الطبية هناك، وأنه تشارك في هذه اللحظة لجنة علمية أرسلتها الحكومة الألمانية في مزيد من الأبحاث حول سبب المرض. ولم تحصل على أي حقيقة واحدة تتعلق بعدوى الكوليرا ومن ثم فمن الخطأ مناقشة لوائح لا تقوم على المعرفة الحقيقية[١٥٠]. ومن ثم كان تقرير كوخ صادمًا ومخيبًا للآمال البريطانية.

للمرة الثانية يظهر عراب مدرسة الطب الإمبريالي جوزيف فيرير ويبرق سريعًا إلى وكيل وزارة الهند في التاسع عشر من مايو ١٨٨٤ قائلًا: " إن نظرية العدوى الجرثومية التى تنتقل من شخص لآخر لا تزال تحظى بقبول العديد من السلطات المؤثرة في القارة ويصرّ هؤلاء وبصوت عالٍ على الحجر الصحي ويتهمنا بالتواطؤ في منع دخول الكوليرا إلى أوربا من أجل مصالحنا التجارية ... لقد بات من غير المشكوك فيه أن عصية مقترنة بالكوليرا تم الكشف عنها وهو بيان خطير سيعزز آراء العدوى وأهمية الحجر الصحي... وليس في نيتي التقليل من شأن تحقيقات دكتور كوخ، لكنني أرغب في تجاهل القبول الفوري لنظرية كوخ والقول: إن سبب الكوليرا لم يتم اكتشافه بشكل قاطع، وأن الأمر لا يعدو كونه خطوة قربتنا من معرفة الوباء أكثر من ذي قبل.... إنني مهتم للغاية لتجنب العواقب الكارثية evil consequences التي قد تنجم عن هذا الاكتشاف المزعوم على حركة الملاحة البحرية والاتصال الدولي" ويؤكد فيرير أن الحل هو إرسال لجنة تحقيق بريطانية للهند للتأكد من سلامة نتائج كوخ ويختم رسالته بالقول: " لحسن الحظ لدينا أخصائيين في

علم الأمراض وعلماء مجهري مثل أي شخص في ألمانيا أو أي مكان آخر لإجراء مثل هذا التحقيق، إنني أحثكم بشدة على الموافقة على مثل هذا التحقيق"[١٥١].

كانت الحقائق التي توصلت إليها بعثة كوخ مزعجة للإنجليز بشكل لا يحتمل التأخير؛ فشكل وزير الدولة لشؤون الهند لجنة كبيرة ضمت صفوة عقول الطب الإنجليزي وكان ضمن أعضائها هنتر و فيرير وكلفت بالرد على ما توصل إليه كوخ من نتائج وخلصت إلى : " إن النتائج التي توصلت إليها بعثة كوخ – ووفق توصية جوزيف فيرير لوزير الخارجية في مايو ١٨٨٤ – تحتاج أن تقوم لجنة حكومية بإجراء تحقيق خاص في الموضوع بأكمله، وعليه فقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح، وتم تكليف اثنين من السادة المؤهلين جيدًا لإجراء هذه البحوث وهما الطبيبين كلاين وجيبز Drs. Klein and Gibbes [١٥٢] . وكان فيرير هو من اختار كلاين لرئاسة البعثة كما ذكر في مذكراته[١٥٣].

لم يكن كلاين – على الرغم من كونه أكثر معرفة من هنتر وأرسخ قدمًا منه في علم البكترلوجي –على قدم المساواة مع كوخ ولا حتى تلاميذه بل أنه لم يكن ضمن الزمرة التي صاغت ثورة البكترلوجي التي عرفها العالم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فبحسب السيرة المختصرة التي قدمها زميله ويليام بولوك William Bullock في ذكراه؛ فالرجل لم ينجح في تحقيق اكتشافات مماثلة لتلك التي وصل إليها كوخ على الرغم من أنه لم يواجه عوائق بسبب نقص المال أو المواد. ويعزو بولوك أخفاقات كلاين المبكرة إلى عمله الحكومي حتى عام ١٩١٠ الذي كان يستنزفه في كتابة مئات التقرير، فضلًا عن كونه ليس متخصصًا منذ البداية في علم البكتريا والجراثيم، بل إنه كان ممن يصرون على آرائهم حتى مع ثبوت خطئها [١٥٤]. والحقيقة فإن بريطانيا لم تكن مهتم بإعطاء أي اهتمام لعلم الجراثيم والبكتريا في تلك

الفترة؛ مما دعا الطبيب جيمس لامبرت للقول: " بحلول عام ١٨٨٣ كان مما يؤسف له ويدعو أيضًا للذهول مدى ندرة ذكر أي أسماء بريطاني عند القراءة عن الأبحاث المتعلقة بالنظرية الجرثومية"[١٥٥]. أما جبيز فكان مساعدًا لكلاين وأقل معرفة منه.

لكن من الصعب القبول بأن نتائج كوخ وحدها هي ما دفعت ببريطانيا إلى إرسال بعثة علمية جديدة، فلقد ضرب وباء الكوليرا صيف ١٨٨٤ الجنوب الفرنسي وتوافد على مارسليا أطباء فرنسيين وألمان كان في طليعتهم شتراوس؛ الذي أرسله باستير مجددًا ليس فقط لتقصى أسباب الوباء وإنما لنقد نظرية البكتريا الفصلية المسببة للكوليرا التي خرج بها كوخ، فالفرنسيون والألمان كانوا متفقين على نظرية جرثومية الوباء لكن تحديد نوع البكتريا المسببة للوباء كانت اكتشافًا ألمانيًا ظل الفرنسيين يرفضونه لفترة ليست بالقصيرة. كما سمحت فرنسا لكوخ بالقدوم إلى مارسليا أيضًا، كذلك الطبيب البريطاني تيموثي لويس، الذي أصبح فيما بعد أمين سر لجنة مراجعة تقرير كلاين وجيبز [١٥٦]. لقد بات موقف بريطانيا أكثر حرجًا في ظل ازدياد حدة الاتهام لها مجددًا بالمسؤولية عن نقل الكوليرا إلى أوربا عبر السفن التجارية.

غادرت بعثة كلاين وجيبز الأراضي البريطانية وأمضت الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر ١٨٨٤ في الهند؛ حيث كانت لا تزال تعاني بعد أثار الوباء في حين تلاشى أي أثر للوباء في مصر مطلع ١٨٨٤. عادت البعثة إلى إنجلترا وقدموا تقريرهم الذي حمل عنوان "تحقيق في مسببات الكوليرا الآسيوية "إلى وزير الدولة لشؤون الهند في مارس ١٨٨٥ وأهم ما جاء فيه نفى كون البكتريا الفصلية هي سبب المرض لوجوده في أمعاء أحياء لم يصبوا بالوباء، ونفي صفة العدوى عن الكوليرا لكون حالة كوليرا قد تصيب فرد واحد ولا تتحول إلى وباء بالرغم من كون الجميع سواء في الهند أو

مصر يستخدمون مصادرًا واحدة للشرب، وإعادة التأكيد على أن الحل الأمثل لمكافحة الكوليرا هي تحسين سبل الصرف ونظم النظافة وليس الحجر الصحي(١٥٧). وختم كلاين تقريره بالقول: "إن نهج كوخ يقدم افتراضات واستنتاجات أكثر مما يمكن أن يدعمها الدليل"(١٥٨).

في يونيو ١٨٨٥ انعقدت لجنة شكلتها وزارة الخارجية لشؤون الهند التي كان يرأسها إيرل كيمبرلي The Earl of Kimberley بغرض النظر في تقرير كلاين وجيبز، اجتمعت اللجنة ثلاث مرات، وعقدت اجتماعها الأخير في ٤ أغسطس ١٨٨٥. ونظرًا لسيل الانتقادات الذي انهمر على السياسية البريطانية في مؤتمر الصحة بروما•؛ فقد تعرضت اللجنة لضغوط لإظهار ردًا واضحًا وسريعًا على استنتاجات كوخ. وكان الموقف الحازم للرئيس اللجنة السير ويليام جينر Sir William Jenner واضحًا منذ البداية، حيث أخبر صراحة أعضاء اللجنة أن المهمة الأكثر أهمية التي تواجههم هي فحص الحقائق التي قدمها كلاين وجيبس لدحضوا الدليل على نظرية جرثومية الكوليرا التي نشرها كوخ. وبالتالي فإن هدف هذه اللجنة لم يكن على ما يبدو دراسة تقرير كلاين وجيبس، بل نفى ادعاء كوخ بأنه اكتشف الكوليرا(١٥٩). وبالفعل كررت اللجنة التأكيد على ما ورد في التقرير بوصفها حقائق لا ترقى للشك.

على كل، تحصنت بريطانيا حينا من الدهر خلف أفكار الطبيب الألماني الكبير ماكس فون بِتنكوفر• والقائلة بضرورة تفاعل عدة عوامل – قد يكون من بينها الجرثومة التي أشار إليها كوخ –من أجل الإصابة بالكوليرا هذه العوامل بيئية ومناخية ونحوهما مجرد واحدة منها. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر كانت مزايا نظرية جرثومية الكوليرا التي وضعها كوخ وعيوبها لا تزال قيد النقاش العلمي

المتخصص. لكن وبحلول أوائل القرن العشرين خسرت بريطانيا السجال العلمي وانحاز بعض علمائها إلى ضميرهم المهني، وأكدوا أن تقارير اللجان البريطانية كتب على عجل وأنها لا تصمد أمام حقائق العلم. لقد انجذب المهنيون الطبيون الغربيون نحو استنتاجات كوخ بوجود بكتريا فصلية مسببة للكوليرا وأنها معدية، وجد البريطانيون أنفسهم في الجانب الخطأ من التاريخ الطبي[١٦٠].

## خاتمة

كان وباء الكوليرا في موجته الخامسة عام ١٨٨٣ مختلفًا بشكل كبير عن موجاته السابقة، فلقد عانى سكان بريطانيا وفرنسا والأراضي الألمانية جميعًا من الكوليرا في المرات السابقة، لكن في تلك المرة كانت هذه القوى الثلاث لا تزال خالية من الكوليرا وبات بإمكانه تحمل تكاليف إرسال لجان بحثية لدراسة المرض . حلت البعثات الثلاث على مصر التي تحولت إلى مخبر عالمي وتباينت أهدافهم بين السعي إلى التوصل لحقيقة المرض وتحقيق سبق علمي يعزز القومية الوليدة كما هو حال البعثة الألمانية أو يعيد الثقة للقومية الجريحة كما هو حال البعثة الفرنسية، وبين مسعى إنجليزي غايته إعطاء صبغة علمية لموقف اقتصادي مُتخذ سلفًا لا يرى في بعض ممارسات الطب في الحد من الوباء سوى معوق لتجارتهم. بل أن المجلة الطبية البريطانية تنفى الطابع الخدمي للبعثات الأوربية فتذكر:" أن محافظات الصعيد عانت بشدة، من نقص في الطواقم الطبية في الوقت الذي كانت تمتلئ فيه الإسكندرية بفيضان من الأطباء الأوربيين والمصريين–ومعظمهم ليس لديهم الكثير للقيام به–. وتضرب المثال بطبيبين بريطانيين آثرا البقاء في الإسكندرية، وتقول لماذا كان يجب أن يحتفظ رجلان، أخرجا من إنجلترا خصيصًا للوباء، هنا، بينما كانت مدن الصعيد تقريبًا بدون مساعدة طبية، إنه أمر يصعب فهمه[١٦١].

وعلى الرغم من التناقض الظاهر في نوايا البعثات الأوربية إلا أنها جميعًا كانت مؤمنة بالخطاب الوظيفي للطب في عصر الإمبريالية الجديدة، وهو اعتبار المعرفة الطبية أحد الدعاوى التي تبرر شرعية الاستعمار. لقد صاغ الطب الحديث روابط جديدة قوية بين العواصم الإمبريالية وممتلكاتها البعيدة، وشهد انعطاف القرن التاسع عشر بزوغ حركة اخصائيين طبيين متنقلين، رجال لهم مكانة رفيعة–مثل رونالد روس

وروبرت كوخ –زاروا مناطق المستعمرات في أفريقيا الغربية على أمل أن ينقلوا خبرة حواضرهم لتخدم الإدارات الاستعمارية الحصينة، بل إن مقتضيات الاستعمار دفعت بإنجلترا مثلًا إلى إنشاء مدرستي لندن وليفربول لطب المناطق الحارة في ١٨٩٩. وشرعت القوى الإمبريالية في استخدم الطب دليلًا على نواياها الخيرة والأبوية، وكطريق لكسب تأييد السكان المحليين ولموازنة الملامح التعسفية للحكم الاستعماري، ولإرساء سيطرة إمبريالية أوسع مما يمكن استقاؤه من الغزو وحده.

وفى مصر استغلت بريطانيا وباء الكوليرا عام ١٨٨٣ لإنتاج خطاب كولونيالي يتهم الإدارة الصحية المصرية بالتخلف وبالتسبب عن الوباء، ويؤسس لبناء طبي جديد يقوم على أساس وفلسفة المستعمر ويقضى على النفوذ المتوارث لبعض القوى الأوربية في المرفق الطبي المصري خصوصًا مجلس الحجر الصحي بالإسكندرية". واستعانت بريطانيا في ذلك ببعض رجالات الطب الإنجليز منهم جون روجرز الذي عين مديرًا لإدارة الصحة العامة في مصر في أوائل عام ١٨٨٤، واستبدل النظام الاستعماري مجلس القاهرة بإدارة مصلحة الصحة العمومية وباتت تابعة لنظارة الداخلية[١٦٢]. وعلى الرغم من انه أوكل لحسن باشا محمود رئاستها إلا أن السلطة الحقيقية في الإدارة كانت للطبيب الإنجليزي فليمنغ ساندويث Sandwith. من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٩٢، كانت إدارة الصحة العامة تحت إشراف الطبيب الإنجليزي إتش آر جرين. بل إن سلطة الاحتلال شرعت عام ١٨٨٥ في تشكيل لجنة من نظارة الأشغال من أجل التحقيق في أكثر مصادر الظروف غير الصحية شيوعًا في القاهرة وهي أمور الصرف الصحي وكان على رأس اللجنة فرانز إنجل والذي وضع سياسة للصرف الصحي بإشراف سلطة الاحتلال البريطاني[١٦٣].

وهكذا استخدم الوباء في تكريس النظام الاستعماري الوليد في مصر الذي أخفق بدوره في إيجاد صيغة علمية يستند إليها في ممارساته، وباتت المعرفة الطبية تستخدم في مصر كما في أفريقيا جنوب الصحراء والهند كأداة لتبيض وجه الإمبريالية بصرف النظر عن موضوعية تلك المعرفة وسلامة حججها.

# قائمة المصادر والمراجع

## الوثائق غير المشورة


- دار الوثائق القومية، محافظ الداخلية، محفظة رقم ٢، ترجمة صورة أمر عال مبين به وظائف مصلحة البحرية و الكورنتينات ٢٨ ديسمبر ١٨٨١.
- دار الوثائق القومية، محافظ الداخلية، محفظة رقم ٤، لائحة الإصلاح " سير مصلحة البحرية والكورنتينات المصرية الصادرة من القومسيون المشكل بمعرفة ناظر الداخلية، ٢٧ ديسمبر ١٨٨١.


## الوثائق الأجنبية


- Commercial. No. 22 , Further reports respecting the cholera epidemic in Egypt and the proceedings of the German Scientific commission, London 1884.
- Commercial. No. 29 , Despatch from Sir Edward Malet, inclosing a report by Surgeon-General Hunter on the cholera epidemic in Egypt 1883, London, 1884.
- Commercial. No. 34 , Correspondence Further reports respecting the cholera epidemic in Egypt in 1883, London , 1884.
- Commercial. No. 38 , Further reports by Surgeon-General Hunter On the cholera epidemic in Egypt 1883, London 1884.
- Commercial. No. 39 , Further reports respecting the cholera epidemic in Egypt in 1883, London , 1884.
- Correspondance de Pasteur, 1840-1895, ton 3, réunie et annotée par Louis Pasteur-Vallery, Paris : Flammarion,-1951.
- Correspondence of Pasteur and Thuillier concerning anthrax and swine fever vaccinations translated and edited by Robert M. Frank University of Alabama Press, 1968.

- Klein and Gibbes, The Official Refutation of Dr. Robert Koch's Theory of Cholera and Commas, Quarterly Journal of Microscopical Science, London, 1886.
- Parliamentary debates: House of Commons
- Parliamentary debates: House of Lords
- Thirteenth Annual Report of the Local Government Board, cholera regulations 188-1884, London, 1885.
- Transactions of a Committee Convened by the Secretary of State for India in Council, London, 1885


## المراجع العربية والمترجمة


- أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، ج١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤.
- أحمد عيس بك، معجم الأطباء، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٢.
- جان شارل سورنيا، تاريخ الطب من فن المداوة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2002.
- دافيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصر إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨.
- سيلفيا شيفولو، الطب والأطباء في مصر: بناء الهوية المهنية والمشروع الطبي، ترجمة ماجدة أباظة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.
- محمد عبد الحميد جوهر، نبذة تاريخية عن باستير وكوخ: معركة علمية بين فرنسا وألمانيا، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٥.
- ميشيل فوكو، ولادة الطب السريري، ترجمة إياس حسن، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، ٢٠٠٨.

## الكتب والأبحاث الأجنبية


- Agnes Ullmann, Pasteur–Koch: Distinctive Ways of Thinking about Infectious Diseases, Microbe, No. 2 , Vol. 8, 2007.
- Alexander Linday, Ricardo's exchange remedy, 1892.
- Carter, K. Codell (1985b), "Koch's Postulates in Relation to the Work of Jacob Henle and Edwin Klebs," Medical History, 29:353–74
- Christoph Gradmann, , Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, Elborg Forster (trans.), Johns Hopkins University, 2009 .
- David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India, Cambridge University Press, 2000.
- David Arnold, Science, Technology, and Medicine in Colonial India ,Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
- David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India ,Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
- David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 212.
- Egypt And The Cholera Source: The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1182 ,Aug. 25, 1883.
- Eike Reichardt, Health, 'Race' and Empire: Popular-Scientific Spectacles and National Identity in Imperial Germany, 1871-1914, PhD , History Dept. Stony Brook University, 2006 .
- Emile Duclaux, Pasteur: the history of a mind 1840-1904, trans. Florence Hedge Erwin Smith, Florence, 1920,
- Emma Grunberg, "The Rationality of Inaccurate Science: Britain, Cholera, and the Pursuit of Progress in 1883," intersections 11, no. 1 2010.

- F. M. Sandwith , Cholera in Egypt, London, 1892.
- F. M. Sandwith , Cholera in Egypt, London, 1892.
- From a correspondent, Cholera In Egypt, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1185 ,Sep. 15, 1883.
- George Nadal and Perry Curtis, Imperialism and Colonialism, London, 1969. John A. Hobson , Imperialism: A Study , New York, 1902.
- Hamlin, Christopher. Cholera: The Biography. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- John Andrew Mendelsohn, Cultures of Bacteriology: formation and transformation of a science in France and Germany, 1870-1914 Vol 1, PhD, department of history, faculty of Princeton university in Candidacy , 1996.
- John C. Peters, General history of the disease and the principal epidemics up to 1885, search in OF Treaties Asiatic Cholera, New York, 1885.
- Joseph Fayrer, Recollections of My Life, London, 1900.
- LaVerne Kuhnke, Lives at risk: public health in nineteenth-century Egypt, Oxford, 1990
- Margot Hentze , Pre-Fascist Italy : The Rise and Fall of Parliamentary, London, 1939..
- Mariko Ogawa, Uneasy Bedfellows: Science and Politics in the Refutation of Koch's Bacterial Theory of Cholera, Bulletin of the History of Medicine, Vol. 74, No. 4 ,Winter 2000..
- Mark Harrison, "A Question of Locality: The Identity of Cholera in British India, 1860-1890," in Warm Climates and Western Medicine: The Emergence of Tropical Medicine, 1500-1900, ed. David Arnold (Amsterdam: Rodopi, 1996).

- Niall Ferguson, Empire: how Britain made the modern world, London: Penguin, 2004.
- Norman Howard-Jones, The scientific background of the International Sanitary Conferences , Geneve, 1975
- Nottidge Macnamara, A history of Asiatic cholera , London , 1876.
- Nottidge Macnamara, A treatise on Asiatic cholera , 1832-1918; London , 1870.
- Nottidge Macnamara, Asiatic cholera : History up to July 15 1892 causes and treatment London , 1876.
- Paul Weindling, "Bourgeois Values, Doctors and the State: The Professionalization of Medicine in Germany 1848-1933," in: David Blackboum and Richard J. Evans, eds. The German Bourgeoisie , New York: Routledge, 1991.
- Rachel Laine Constance, The Cholera Networks: Constructing Imperial Knowledge in the British Empire, 1817-1917, PhD in History, Northern Arizona University, 2012.
- Rachel Laine Constance, The cholera networks: constructing imperial knowledge in the British Empire, 1817-1917, PhD in History, Northern Arizona University December 2012.
- Report Of A Study Of The Cholera In Egypt By Members Of The French Scientific Mission, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1195, Nov. 24, 1883.
- Report Of The French Cholera-Mission In Egypt, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1195 ,Nov. 24, 1883.
- Report of the German Cholera Commission." Science, Vol 2, no. 42 ,1883.

- Richard Shryock, European Backgrounds of American Medical Education (1600/ 1900), Journal of the American Medical Association, vol. 194, no. 7 ,1965.
- Robert Koch , On the Anthrax Inoculation , chapter in "Essays of Robert Koch" K. Codell Carter, 1987.
- Shehab Ismail , Engineering Metropolis: Contagion, Capital, and the Making of British Colonial Cairo, 1882-1922 , PhD, School of Arts and Sciences Columbia university, 2017.
- Terrie M. Romano,, The Cattle Plague of 1865 and the Reception of "The Germ Theory" in Mid-Victorian Britain, Journal of the History of Medicine and Allied Sciences, Volume 52, Issue 1, January 1997.
- The British Medical Journal, cholera In Egypt. Special Telegrams To The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1176 ,Jul. 14, 1883.
- The cholera in Egypt, scientific American , vol. 49, no. 24 , December 15, 1883.
- The Cholera in Egypt, the British Medical Journal, Vol. 2, No. 1175, July. 7, 1883.
- Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, New York, 1999.
- Thomas Henry Huxley, "Presidential Address to the Royal Society 1883," Nature (December 1883)
- Valeska Huber, "The Unification of the Globe by Disease? The International Sanitary Conferences on Cholera, 1851-1894," The Historical Journal 49, 2 , 2006
- William Bulloch, The history of bacteriology, New York, 1938.
- William Bullock, In memoriam. Emanuel Klein, 1844-1925, The Journal of Pathology and Bacteriology, Vol. XXVIII., 1925.

- William Bynum, The History of Medicine A Very Short Introduction, Oxford 2008.
- William Coleman, Koch's comma bacillus: the first year, Bulletin of the History of Medicine, Fall, Vol. 61, No. 3 , 1987, p. 315.
- William Coleman, Koch's comma bacillus: the first year, Bulletin of the History of Medicine, Fall, Vol. 61, No. 3 , 1987.
- William G. Hynes, The economics of empire: Britain, Africa, and the new imperialism, 1870-95 ,London: Longman Group, 1979.


## الرسائل العلمية


- سمير عمر إبراهيم، الشئون الصحية في مصر خلال القرن التاسع عشر " دراسة وثائقية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، ١٩٨٩.


## الجرائد الأجنبية


- Exterieur
- Journal de Roanne
- L'Événement
- La Gazette
- La Justice
- La Lanterne
- La Persse
- La Petite République
- Le Bulletin Politique
- Le Figaro
- Le Gaulois
- Le Petit Courrier
- Le Petit Parisien
- Le Rappel
- Le Soleil
- Le Temps

- Le Voltaire
- Le XIXe siècle
- Paris
- Le Siècle
- Petit Provençal
- The British Medical Journal
- The times
- La Démocratie du Cher
- La Liberté

## هوامش الدراسة

(1) George Nadal and Perry Curtis, Imperialism and Colonialism, London, 1969, pp. 12, 15

(2) John A. Hobson , Imperialism: A Study , New York, 1902.p. 5.

(3) Niall Ferguson, Empire: how Britain made the modern world, London: Penguin, 2004, 195.

(4) Paul Weindling, "Bourgeois Values, Doctors and the State: The Professionalization of Medicine in Germany 1848-1933," in: David Blackboum and Richard J. Evans, eds. The German Bourgeoisie , New York: Routledge, 1991,p. 198.

(٥) ميشيل فوكو ، ولادة الطب السريري، ترجمة إياس حسن، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، ٢٠٨، ص٦.

• سياسي بريطاني شغل منصب الحاكم العام للهند البريطانية في الفترة ما بين ١٨٩٩ و١٩٠٥ ووزير خارجة بريطانيا خلال أعوام ١٩١٩ حتى ١٩٢٤.

(6) David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India, Cambridge University Press, 2000, 212

(٧) دافيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصر إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٦، الكويت، ١٩٩٨، ص ١٤.

(8) Le Constitutionnel, Le Bulletin Politique , 26 Juin 1883.
Le choléra en Egypte, Le Rappel 26 Juin 1883, p. 2.

(٩) سيلفيا شيفولو، الطب والأطباء في مصر: بناء الهوية المهنية والمشروع الطبي، ترجمة ماجدة أباظة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٥.

(١٠) عقد المؤتمر الأول في لندن عام ١٨٥١ ثم المؤتمر الثاني في باريس عام ١٨٥٩ ثم في القسطنطينية ١٨٦٦ مؤتمر فينيا ١٨٧٤ ثم مؤتمر روما ١٨٨٥ثم عقد مؤتمر البندقية ١٨٩٢ ثم مؤتمر دريسدن ١٨٩٣ مؤتمر باريس ١٨٩٤. للمزيد

Valeska Huber, "The Unification of the Globe by Disease? The International Sanitary Conferences on Cholera, 1851-1894," The Historical Journal 49, 2 , 2006

• مرض معدي تسببه سلالة معينة من البكتيريا هي اليرسينيا الطاعونية (Yersinia pestis). تنتقل إلى البشر والحيوانات عبر التعرض لعضات أو قرصات البراغيث التي كانت تتغذى على القوارض الحاملة للبكتيريا.

(١١) سيلفيا شيفولو، الطب والأطباء في مصر: بناء الهوية المهنية والمشروع الطبي، ص٤٦.

(12) Richard Shryock, European Backgrounds of American Medical Education (1600/ 1900), Journal of the American Medical Association, vol. 194, no. 7 ,1965, pp. 710, 712

- تعرف تلك اللجنة باسم لجنة الحجر الصحي على الرغم من وجود العديد من التغييرات في مسماها منذ ١٨٣١ وحتى 1880، حيث سميت اللجنة القنصلية للصحة؛ لجنة الصحة القنصلية؛ مجلس الصحي والبحري والحجر الصحي في مصر . للمزيد راجع LaVerne Kuhnke, Lives at risk: public health in nineteenth-century Egypt, Oxford, 1990.

(13) LaVerne Kuhnke, Lives at risk, pp. 92, 93.

(١٤) سمير عمر إبراهيم، الشئون الصحية في مصر خلال القرن التاسع عشر " دراسة وثائقية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، ١٩٨٩، ص ٢٢. على الرغم من ان الكثير اعتبر مقررات مؤتمر باريس الخاصة بالحجر الصحي مجرد قطعة نثرية لم تلزم أيًا من الحكومات المشاركة ما لم تصدق عليها لاحقًا، إلا أن الموافقة العثمانية ألزمت مصر. راجع

Norman Howard-Jones, The scientific background of the International Sanitary Conferences , Geneve, 1975, p. 15

(15) Egypt And The Cholera Source: The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1182 (Aug. 25, 1883), pp. 391-393

(١٦) دار الوثائق القومية، محافظ الداخلية، محفظة رقم ٢، ترجمة صورة أمر عال مبين به وظائف مصلحة البحرية و الكورنتينات ٢٨ ديسمبر ١٨٨١.أحمد عيس بك، معجم الأطباء، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٢، ص ١٩٩

(١٧) دار الوثائق القومية، محافظ الداخلية، محفظة رقم ٤، لائحة الإصلاح " سير مصلحة البحرية والكورنتينات المصرية الصادرة من القومسيون المشكل بمعرفة ناظر الداخلية، ٢٧ ديسمبر ١٨٨١.

(١٨) جان شارل سورنيا، تاريخ الطب من فن المداوة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتى، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨١، الكويت، 2002، ص ٢٢٥.

- نظرية جرثومية المرض والتي يطلق عليها أيضًا نظرية مرضية الدواء هي نظرية تفترض أن الميكروبات هي سبب العديد من الأمراض. وعلى الرغم من أن نظرية جرثومية المرض كانت خلافية ومثيرة للجدل عند اقتراحها لأول مرة، إلا أنها النظرية العلمية المقبولة حاليا ومنذ أواخر

القرن التاسع عشر وتعد الآن جزءًا أساسيًا من الطب الحديث. للمزيد راجع جان شارل سورنيا، تاريخ الطب من فن المداوة إلى علم التشخيص.

(19) William Bynum, The History of Medicine A Very Short Introduction, Oxford 2008, p. 98.

(20) William Bulloch, The history of bacteriology, New York, 1938, p. 255.

(21) John Andrew Mendelsohn, Cultures of Bacteriology: formation and transformation of a science in France and Germany, 1870-1914 Vol 1, PhD, department of history, faculty of Princeton university in Candidacy , 1996, PP 5, 8.

(22) John Andrew Mendelsohn, Cultures of Bacteriology: formation and transformation of a science in France and Germany, 1870-1914 Vol 1, p. 21.

(23) Agnes Ullmann, Pasteur–Koch: Distinctive Ways of Thinking about Infectious Diseases, Microbe, No. 2 , Vol. 8, 2007, pp. 383–7.

(٢٤) محمد عبد الحميد جوهر، نبذة تاريخية عن باستير وكوخ : معركة علمية بين فرنسا وألمانيا، مطبعة الاعتماد ، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٤٤

(25) Robert Koch , On the Anthrax Inoculation , chapter in "Essays of Robert Koch" K. Codell Carter, 1987.
http://pyramid.spd.louisville.edu/~eri/fos/Anthrax_Inoc.html

(26) Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, New York, 1999, p. 169.

(27) John Andrew Mendelsohn, Cultures of Bacteriology: formation and transformation of a science in France and Germany, 1870-1914 Vol 1, p. 183.
Agnes Ullmann, Pasteur–Koch: Distinctive Ways of Thinking about Infectious Diseases, p. 386.

- كان هناك بعثة روسية بقيادة الدكتور إيك أرسلته وزارة الداخلية الروسية إلى مصر، لكن تلك البعثة لم تكن ذات أثر ملموس وذلك لتدنى المعرفة الطبية لدى الروس في تلك الفترة بل إن بعضهم كان يعمل في المعامل البحثية التي كانت تحت إشراف باستير وكوخ.

Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, p. 292, 342

(٢٨) أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن ، ج١، مطبعة مصر ، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢٢٠

(29) F. M. Sandwith , Cholera in Egypt, London, 1892, p. 10.

(30) Le Soleil , Le choléra en Egypte, 26 Juin 1883. Le Rappel, Le choléra en Egypte, 26 Juin 1883, p. 2.
(31) Le Constitutionnel , Le bulletin Politique, 26 Juin 1883
(32) La Persse , Le Choléra en l'Égypte , 28 Juin 1883
(33) Le Petit Parisien ,Le Choléra en l'Égypte , 28 Juin 1883
(34) Le Gaulois, 27 Juin 1883
(35) Exterieur , Le choléra en Egypte, Paris 27 Juin 1883
(36) Journal de Roanne, 1 Jullet 1883
(37) La Petite République, 1 Jullet 1883
(38) La Gazette de France, Le choléra est en Egypte , 28 Juin 1883
Le Petit Provençal , Les musures défensives contre le Choléra , 27 Juin 1883
(39) Correspondance de Pasteur, 1840-1895, ton 3, réunie et annotée par Louis Pasteur-Vallery, Paris : Flammarion,-1951, p. 364. p. 9.
(40) William Coleman, Koch's comma bacillus: the first year, Bulletin of the History of Medicine, Fall, Vol. 61, No. 3 , 1987, p. 315.
(41) La Petite République, Le choléra en Egypte, 9 juillet 1883, p.2.
(42) Correspondence of Pasteur and Thuillier concerning anthrax and swine fever vaccinations translated and edited by Robert M. Frank University of Alabama Press, 1968, p. 9.
(43) Emile Duclaux, Pasteur: the history of a mind 1840-1904, trans. Florence Hedge Erwin Smith, Florence, 1920,
(44) L'Événement, 23 Jullet 1883
(45) La Lanterne, 1 Août 1883, p. 2.
(46) La Gazette, Informations diverses, 13 Jullet 1883, p.3
(47) The times, eastern company's carles, 25 July 1883, p. 5.
(48) Le Figaro, 24 Juillet 1883. P.2.
(49) Le XIXe siècle, 1 Août 1883
(50) Le Voltaire, 6 Août 1883
(51) Le Temps, 19 Août 1883
(52) Paris, La mission Pasteur, 6 Septembre 1883
(53) Le Figaro, 20 Septembre 1883
(54) Le Petit Courrier de Bar-sur-Seine, 21 Septembre 1883
(55) Le Figaro, 21 Septembre 1883
(56) Le Gaulois, 27 Octobre 1883

(57) Mariko Ogawa, Uneasy Bedfellows: Science and Politics in the Refutation of Koch's Bacterial Theory of Cholera, Bulletin of the History of Medicine, Vol. 74, No. 4 (Winter 2000), pp. 684..

(58) La Justice, 27 Novembre 1883

(59) Report Of The French Cholera-Mission In Egypt, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1195 ,Nov. 24, 1883, pp. 1038, 1039.

(60) Report Of A Study Of The Cholera In Egypt By Members Of The French Scientific Mission, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1195, Nov. 24, 1883, pp. 1038-1039.

(61) F.O , NO.27: Circular addressed to Her Majesty's Representatives in European Countries, on the subject of the recent outbreak of Cholera in Egypt, Foreign Office, July 31,1883, London, 1883 pp. 1,3.

(62) Eike Reichardt, Health, 'Race' and Empire: Popular-Scientific Spectacles and National Identity in Imperial Germany, 1871-1914, PhD , History Dept. Stony Brook University, 2006 Pp. 85, 90

(63) Christoph Gradmann, , Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, Elborg Forster (trans.), Johns Hopkins University, 2009 , pp. 183,184

(64) Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, pp. 140, 147.

(65) Alexander Lindsay, Ricardo's exchange remedy, 1892, p. 34.

ورد في معظم المصادر أن بعثة باستور خصص لها ٥٠ ألف فرنك غير أن التايمز البريطانية فإن الحكومة الفرنسية خصصت ٢٠ ألف فرنك للبعثة.

The times, eastern company's carles, 25 July 1883, p. 5

(66) Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, pp. 147, 148.

(67) F.O 407/22. R. KOCH, the Head of the Scientific Commission despatched to Egypt to investigate the cholera, Alexandria, September 17, 1883, PP. 2, 6.

(68) Carter, K. Codell (1985b), "Koch's Postulates in Relation to the Work of Jacob Henle and Edwin Klebs," Medical History, 29:353–74

(69) F.O 407/22. R. KOCH, the Head of the Scientific Commission despatched to Egypt to investigate the cholera, Alexandria, September 17, 1883, PP. 2, 6.

(70) The cholera in Egypt, scientific American , vol. 49, no. 24 , December 15, 1883, p. 369

(71) Report of the German Cholera Commission." Science, Vol 2, no. 42 (1883): 675-78

(72) F.O 407/38, NO. 142, Lord Ampthill to Earl Granville, My Lord, Berlin, October 16, 1883, p. 3.

(73) F.O 407/38, NO. 142, Report From DR. Koch, the Head of the Scientific Commission despatched to Egypt to investigate the Cholera , Alexandria, September 17, 1883, pp. 3,6

(74) F.O, 407/22, further Report, dated Suez, 10th November, drawn up by Dr. Koch,
the Chief of the German Scientific Expedition which has been sent to Egypt to investigate into the origin of the cholera, PP. 20.21

(75) F.O, 407/22, further Report drawn up by Dr. Koch, pp. 21, 22.

(76) Christoph Gradmann, , Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, pp. 189, 190.

(77) British Medical Journal August 30, 1884, Volume II, pages 403-407 and 453-459.

(78) Christoph Gradmann, , Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, pp. 186, 187.

(79) Christoph Gradmann, , Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, pp. 189, 190.

(80) William Coleman, Koch's comma bacillus: the first year, Bulletin of the History of Medicine, Fall, Vol. 61, No. 3 , 1987, p. 315.

(81) Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, pp 166, 167.

(82) Christoph Gradmann, Laboratory Disease: Robert Koch's Medical Bacteriology, pp. 194, 195.

(83) David Arnold, Science, Technology, and Medicine in Colonial India (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 83.

(84) Emma Grunberg, "The Rationality of Inaccurate Science: Britain, Cholera, and the Pursuit of Progress in 1883," intersections 11, no. 1 (2010), p. 2.

كان نمط انتشار الكوليرا محيرًا؛ فقد كان ثمة نموذجان فكريّان تفسيريّان متداولان لشرح الأمراض الوبائية: النموذج الوبالي ونموذج العدوى. ذهب أنصار النموذج ّ الوبالي إلى أن الأمراض المجتمعية تنتشر عبر الهواء، نتيجة أحوال جوية أو جسيمات عالقة في الجو. وكان المصدر المقترَح للمرض هو المادة العضوية المتعفنة؛ ّكالمخلفات والبراز، أو في الواقع أي شيء بغيض أو كريه الرائحة. وعليه دعوا للنظافة العامة كسبيل وحيد للقضاء على الوباء ورفضوا الحجر الصحى أما

أنصار نموذج العدوى فافترضوا أن الأمراض الوبائيّة تنتقل من فرد مصابٍ بالمرض إلى آخر. وعليه آمنوا بالحجر الصحى .

(85) Rachel Laine Constance, The Cholera Networks: Constructing Imperial Knowledge in the British Empire, 1817-1917, PhD in History, Northern Arizona University, 2012, pp. 83, 85.

(86) William G. Hynes, The economics of empire: Britain, Africa, and the new imperialism, 1870-95 (London: Longman Group, 1979), 35.

(87) Georges Pouchet , le Choléra et les Anglais en Egypte Le Siècle 24 Juin 1883, p. 1.

(88) Le Voltaire ,1 juillet 1883, p.3

(89) F.O 407/34, From Consul Mieville to Consul Cookson, the Mixed Commission appointed to proceed to Damietta, Alexandria, June 27, 1883

(90) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 28 June 1883, vol. 280, London, 1884 , pp. 1706, 1707.

(91) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 29 June 1883, vol. 280, London, 1884 , pp. 1872, 3.

أكد وزير الخارجية هارتنجتون أن وضع القوات البريطانية مطمئنا وأن الضباط الأطباء على استعداد لتقديم الدعم وان الإمدادات الطبية وافية وإن كافة الاحتياطات يتم اتخاذها

(92) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 2 July 1883, vol. 281, London, 1884 , pp. 57, 58.

(93) F.O 407/34, From Dr. Hassan to Consul Mieville, Alexandria June 28, 1883 .

From Consul Mieville to Consul Cookson, Alexandria, June 29, 1883

(94) F.O 407/34, From Consul Mieville to Consul Cookson, the Mixed Commission appointed to proceed to Damietta, Alexandria, June 27, 1883

(95) Parliamentary debates: House of Lords, outbreak of cholera in Egypt, 3 July 1883, vol. 281, London, 1884 , pp. 158, 160.

وفور الإعلان عن ظهور الكوليرا في ٢٢ من يونيو ١٨٨٣، تم تشكيل لجنة مختلطة من مجلس الصحة بالقاهرة ومجلس الحجر الصحي بالإسكندرية تضم عشر أطباء من المصريين والأجانب المقيمين في مصر كلفت بالسفر إلى دمياط والوقوف على ما يحدث هناك. وصدر تقريرها الأول ف٢٥ يونيو ليؤكد أن اللجنة تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن السبب الوفاة للجثث التي فحصتها مرض الكوليرا. كما أكدت اللجنة أن سرعة انتشار المرض وفداحة الأعراض الظاهرة

على المصابين به تؤكد أن انتشاره وبائيا

F.O 407/34, Report to the Maritime Sanitary and Quarantine Board of Egypt, by Ahmed Chaffey Bey and Salvatore Ferrari. Damietta, July 24, 18S3

(96) Dr. Mackie to Earl Granville, Alexandria, July 7, 1883.

(97) Memorandum by Consul Mieville (British Sanitary Delegate) on the Origin of the Outbreak of Cholera at Damietta, Alexandria, July 4, 1883, p. 16.

(98) The times, 2 July 1883, p. 5.

(99) The times, 3July 1883, p. 9.

(100) Thirteenth Annual Report of the Local Government Board, cholera regulations 188-1884, London, pp. 58, 60

(101) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 09 July 1883, vol. 281 , London, 1884 pp. 788-91

(102) F.O 407/34, From Sir E. Malet to Earl Granville, July 17, 1883, p. 18.

(103) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 10 July 1883, vol. 281, London, 1884 , p. 957.

(104) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The rinderpest, 10 July 1883, vol. 281, London, 1884 , p. 965.

(105) The Cholera in Egypt, the British Medical Journal, Vol. 2, No. 1175, July. 7, 1883, p. 22

(106) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The cholera, 10 July 1883, vol. 281, London, 1884, p. 957.

(107) David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 141.

(108) Emma Grunberg, "The Rationality of Inaccurate Science: Britain, Cholera, and the Pursuit of Progress in 1883," p. 22.

كانت بريطانيا بالفعل قد استطاعت أن تمنع الموجة الرابعة لوباء الكوليرا عام ١٨٦٦ من أن تطئي أرضها وكانت منظومة الصحة والنظافة فيها تمثل صراحًا كبيرًا ظل البريطانيون يتباهون به طيلة القرن التاسع عشر

(109) F.O, No. 34, From Dr. Mackie to Earl Granville, Alexandria, July 9, 1883.

(110) La Démocratie du Cher, 14 Jullet 1883, p. 2

(111) The British Medical Journal, cholera In Egypt. Special Telegrams To The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1176 (Jul. 14, 1883), p. 85

(112) Joseph Fayrer, Recollections of My Life, London, 1900, pp.439-40.

(113) F.O 407/34, From Earl Granville to Surgeon- General Hunter, July 14, 1883, p. 16.

(114) Joseph Fayrer, Recollections of My Life, , pp.439-40.

- تكتسى دراسات ماكنمارا أهمية خاصة ليس لكونها من الدراسات الباكرة والرائدة فحسب، ولكن لكون صاحبها أمضى أكثر من عقدين من الزمن في خدمة الإدارة البريطانية في الهند منذ انضمامه إلى جيش البنغال كجراح مساعد عام ١٨٥٤إلى أن تقاعد عام ١٨٧٥. أورد ماكنمارا جزءًا مقتضبًا من سيرته في مقدمة أطروحته عن الكوليرا الأسيوية راجع:

Nottidge Macnamara, A treatise on Asiatic cholera , 1832-1918; London , 1870, preface.

(115) Mariko Ogawa, Uneasy Bedfellows: Science and Politics in the Refutation of Koch's Bacterial Theory of Cholera, , pp. 680, 681.

(116) Nottidge Macnamara, A history of Asiatic cholera , London , 1876, p. 12.

(117) Nottidge Macnamara, Asiatic cholera : History up to July 15 1892 causes and treatment London , 1876, p. 12.

(118) David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 212.

(119) David Arnold, Science, technology, and medicine in colonial India , p. 141.

(120) Parliamentary debates: House of Commons official report, Egypt: The rinderpest, 20 July 1883, vol. 282, London, 1884 , pp. 41, 44.
La Liberté, le choléra, 22 juillet 1883, p. 3

(121) F.O 407/34, From Earl Granville to Sir E. Malet, July 14, 1883, p. 12.

(122) Paris 15 juillet 1883, le choléra, p.1.

(123) F.O 407/34, From Earl Granville to Sir E. Malet, July 9, 1883, p. 14.

(124) F.O 407/34, From Cherif Pasha to Sir E. Malet, July 10, 1883, p. 14.

(125) F.O 407/34, From Earl Granville to Sir E. Malet, July 14, 1883, p. 14.

(126) The times, eastern company's cable, 25 July 1883, p. 5.

(127) F.O 407/34, From Sir E. Malet to Earl Granville, July 16, 1883, p. 18.

(128) Egypt And The Cholera Source: The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1182 (Aug. 25, 1883), pp. 391-393

(129) F.O 407/34,From Surgeon- General Hunter to Sir E. Malet , Cairo, August 6, 1883, pp. 1, 3.

(130) F.O 407/39, Major MacDonald to Sir E. Malet Sir, Cairo, August 13, 1883, pp. 16, 17.

(131) Further Reports by Surgeon-General Hunter on the Cholera Epidemic in Egypt, No. 1: From Sir E. Malet to Earl Granville, Cairo, August 20, 1883, p. 1.

(132) From a correspondent, Cholera In Egypt, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1185 ,Sep. 15, 1883, pp. 541-542

(133) F. O 407/38 , From Surgeon- General Hunter to Sir E. Malet , Cairo, August 19, 1883, pp. 2, 5.

(134) F. O 407/38 , From Surgeon- General Hunter to Sir E. Malet , pp. 2,5. Dr. Dutrieux to Cherif Pasha. Excellence, Belcasse, le 15 Aout, 1883, pp. 7,8.

(136) F. O 407/38,Dr. Sierra to Dr. Sonsino, Alexandria, July 31, 1883, pp. 5, 6

(137) F. O 407/38, Dr. Dutrieux to Cherif Pasha. Excellence, Belcasse, le 15 Aout, 1883, pp. 7,8.

(138) Examination of Mohamed Khalifa, sent to his Excellency Dr. Hassan Pasha Mahmoud, President of the Maritime Sanitary and Quarantine Board, by Dr. Chaffey Bey., 9th July, 1883

(139) From Surgeon- General Hunter to Sir E. Malet. Sir, Cairo, August 19, 1883, pp. 2, 5.

(140) F. O 407/38, From , Dr. Sierra to Dr. Sonsino. , Alexandria, July 31, 1883, pp. 6,7.

(141) F. M. Sandwith , Cholera in Egypt, London, 1892, p.13.

(142) F. O 407/38, From Surgeon- General Hunter to Sir E. Malet , Cairo, Cairo, September 13, 1883,p. 1.

(143) F. O 407/38, From Salem Pasha to Surgeon- General Hunter, Cairo, Cairo, September 11, 1883,p. 2.

(144) F.O 407/38, NO. 3, From Dr. Macnamara to the Private Secretary of his Excellency Kha'iry Pasha, London , October 13, 1883, p.5.

(145) F.O 407/38, NO. 3, From Sir B. Baring to Mr. Lister, Cairo, October 21, 1883, p.5.

(146) John C. Peters, General history of the disease and the principal epidemics up to 1885, search in OF Treaties Asiatic Cholera, New York, 1885, pp. 61, 66.

(147) Thomas Henry Huxley, "Presidential Address to the Royal Society 1883," Nature (December 1883)
http://aleph0.clarku.edu/huxley/UnColl/Nature/RS83.html (accessed March 7, 2010)

(148) Mariko Ogawa, Uneasy Bedfellows: Science and Politics in the Refutation of Koch's Bacterial Theory of Cholera, , pp. 686.

(149) Mark Harrison, "A Question of Locality: The Identity of Cholera in British India, 1860-1890," in Warm Climates and Western Medicine: The Emergence of Tropical Medicine, 1500- 1900, ed. David Arnold (Amsterdam: Rodopi, 1996) , p. 147.

(150) F.O 407/32. From Earl Granville to Count Xigra. Foreign Office, March 7, 1884.

(151) Klein and Gibbes, The Official Refutation of Dr. Robert Koch's Theory of Cholera and Commas, Quarterly Journal of Microscopical Science, London, 1886, pp. 305, 306.

(152) Klein and Gibbes, The Official Refutation of Dr. Robert Koch's Theory of Cholera and Commas, , pp. 305, 306.

(153) Joseph Fayrer, Recollections of My Life, pp.445-446.

(154) William Bullock, In memoriam. Emanuel Klein, 1844-1925, The Journal of Pathology and Bacteriology, Vol. XXVIII., 1925, pp. 692-697.

(155) Terrie M. Romano,, The Cattle Plague of 1865 and the Reception of "The Germ Theory" in Mid-Victorian Britain, Journal of the History of Medicine and Allied Sciences, Volume 52, Issue 1, January 1997, p. 52.

(156) Thomas D. Brock, Robert Koch: A Life in Medicine and Bacteriology, pp. 176, 177.

(157) Army Medical library , in Cholera: Inquiry by Doctors Klan and Gibbes , and Transactions of a Committee Convened by the Secretary of State for India in Council, London, 1885, pp. 25, 40

عاد كلاين من رحلته للهند أستاذًا لعلم الجراثيم في كلية طب الدولة – هذا المشروع الذي تأسس عام ١٨٨٦ – من مؤسسين معظمهم من الجراحين المتقاعدين من القوات البحرية والجيش والقوات التي خدمت في الهند

William Bullock, In memoriam. Emanuel Klein, 1844-1925, pp.

(158) Hamlin, Christopher. Cholera: The Biography. Oxford: Oxford University Press, 2009, p. 224.

- خفف من حدة النقد لسياسية بريطانيا تأييد إيطاليا دولة الانعقاد جزئيًا للموقف البريطاني، وكان علة التأييد الإيطالي هو مؤازرة حكومة جلادستون للنشاط الإمبريالي الإيطالي في أفريقيا والسماح لها باحتلال مصوع سنة ١٨٨٥ والتي شكلت نواة الصومال الإيطالي.

Margot Hentze , Pre-Fascist Italy : The Rise and Fall of Parliamentary, London, 1939, pp. 157, 158.

(159) Transactions of a Committee convened by the Secretary of State for India in Council ,pp. 35, 40

- وفي بادرة شهيرة، ابتلع علنًا قارورة من القوارير التي يضع فيها كوخ البكتريا المسببة للكلوليرا، ولم يُصب إلا بنوبة إسهال خفيفة، لا ترقى بحال للإصابة الفعلية بمرض الكوليرا في صورته الكاملة.

(160) Rachel Laine Constance, The cholera networks: constructing imperial knowledge in the British Empire, 1817-1917, PhD in History, Northern Arizona University December 2012, pp. 156, 166.

(161) From a correspondent, Cholera In Egypt, The British Medical Journal, Vol. 2, No. 1185 ,Sep. 15, 1883, pp. 541-542

- لقد قال كرومر ذلك بوضوح في عقب انقشاع غمة الوباء: " ليس من الضروري ولا من المرغوب فيه طرح مسألة تنظيم الإدارة الصحية في مصر للنقاش دولي... لا يجب ترك التجارة الواسعة بين الشرق والغرب، والتي تمر عبر الأراضي المصرية، تحت رحمة هيئة دولية غير مسؤولة، مثل مجلس الإسكندرية للحجر الصحي، أنه مجلس معيبة للغاية وليس تحت السيطرة. غالبًا ما تكون قراراتها تعسفية ومتقلبة.

F.O 407/32, From Sir E. Baring to Earl Granville, Cairo, November 12, 1883

(162) FO 407/32: From Evelyn Baring to Earl Granville ،November 5 ، 1883.

(163) Shehab Ismail , Engineering Metropolis: Contagion, Capital, and the Making of British Colonial Cairo, 1882-1922 , PhD, School of Arts and Sciences Columbia university, 2017, p. 50.